رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

التفسير الواضح الميسّر

بقلم
الشيخ محمد علي الصابوني

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

رفع المسهم
غفر الله له ولوالديه

2010-09-08
www.tafsir.net
www.almosahm.blogspot.com

التفسير الواضح الميسر

تفسير حديث، جامع بين المأثور والمعقول، بأسلوب سهل ميسر
مع بيان أسباب النزول، والشواهد من الأحاديث النبوية الصحيحة

رفع المسهم
غفر الله له ولوالديه

أخي المسلم

إن أردت السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، فعليك بالاعتصام بالقرآن والسنة فهما زادك وطريقك إلى الله فقد قال صلى الله عليه وسلم:

"لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي"

"رواه مالك"

"إني لأعجب لمن يقرأ القرآن، كيف يلتذ بقراءته ولم يفهم معناه"

"الإمام الطبري"

المقــدّمة

الحمد لله أنار بكتابه المبين، عقول عباده المؤمنين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فإن المسلمين اليوم في أمسِّ الحاجة، إلى فهم كتاب الله العظيم، والتمسك به، في عصرٍ طغت فيه المادة، وتاهت فيه البشرية في خِضمّ المادية، فانحرفت عن هداية الله، مع أن بين أيديهم، هذا النور الإلهي الوضاء، المنقذ لهم من الشقاء، لذا كان لزاماً على العلماء أن يعيدوا الأمة الإسلامية، إلى مركز عزِّها وسيادتها، وذلك بالارتباط بكتاب ربها، الذي فيه السعادة، والنجاحُ، والفلاح ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم﴾

هذا وقد وضعتُ بين يديْ إخوتي المؤمنين، هذا التفسيرَ الواضح الميسَّر، عسى أن ينفع الله به من يريد له الخير، وهو تفسيرٌ يجمع بين المأثور والمعقول، بأسلوبٍ سهلٍ ميسَّر، يفهمه الخاصة والعامة، والله أسأل أن ينفع به، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويوفِّقنا لخدمة كتابه ودينه، والله من وراء القصد.

خادم الكتاب والسُّنَّة

الشيخ محمد علي الصابوني

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

تفسير سورة الزخرف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي أقسمُ لكم بالكتاب المبين، الواضح في بيانه، الساطع في برهانه، على أن هذا القرآن كلام الرحمن جلَّ وعلا، أنزلناه بلغة العرب، لتعقلوه وتفهموه، وتتدبروا معانيَه، وتعلموا صدق رسالة النبي الأمي محمد ﷺ ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي وإن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا، ذو مكانة عظيمة، وشرفٍ وفضلٍ فائق.. وفي القَسَم بالقرآن على علو قدره، براعة بديعة، حيث لا يوجد ما يدلُّ على علو شأنه، أكبر ولا أسمى، من أن يُقسم تعالى به على الكتاب نفسه ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ إستفهام إنكاري، أي أفنهملكم ونترك تذكيركم بالقرآن يا معشر قريش؟ ونعتبركم كالبهائم فنعرض عن تبصيركم وهدايتكم؟ لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان؟ لا، لا نترك تذكيركم، وإن كنتم مغرقين في الإجرام!! ثم سلَّى تعالى رسوله ﷺ عن تكذيب المشركين، وسخريتهم به، فقال سبحانه ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي وكثير من الأنبياء أرسلناهم في الأمم السابقة، وعادةُ الأمم الضالين، أنه ما جاءهم رسولٌ، إلاَّ سخروا منه، واستهزءوا به!! فلا تحزن يا أيها الرسولُ ولا تبال بتكذيبهم، فتلك هي طريقة الطغاة المعاندين للرسل ﴿يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾

رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ وقد أهلكنا قوماً كانوا أشدَّ قوة من قومك المجرمين، وصارت أخبارهم مثلاً يُروى، ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم من المكذبين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي ولئن سئلوا عمن خلق السموات والأرض، ليعترفون ويُقِرّون بأن الخالق لها هو الله ربُّ العزة والجلال، ثم يعبدون معه، ما لا ينفع ولا يضر من الأصنام والأوثان!! أقرُّوا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره سفهاً وجهلاً، وهذا أمر يدعو إلى العجب ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هذا بيانٌ لصفات عظمته وجلاله، وآثار قدرته وإبداعه، أي هذا الربُّ العظيم، الذي اعترفتم بخلقه للسموات والأرض، هو الذي جعل لكم الأرض، ممهَّدة كالبساط، تستقرون عليها وتبنون وتنامون، وهي مسهَّلة وميسَّرة لكم للزراعة والبناء، فيها السهول، والوديان، والعيون، والأنهار، ولكم فيها جميع أسباب الراحة، والعيش، والاستقرار، وفيها الطرق التي تسلكونها في أسفاركم، لتهتدوا إلى مقاصدكم ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي وهذا الإله وهذا الذي نزَّل لكم المطر، بمقدار ووزنٍ معلوم، ينفع ولا يضرُّ، فأحيينا به أرضاً ميتة، جرداء مقفرة، فأحيينا بهذا المطر، النبات والزرع، وأخرجنا لكم به الثمر، كذلك نخرجكم من قبوركم بعد موتكم، والتعبير بقوله (بقدر) يشير إلى الإبداع والإتقان، فهو مقدَّر بوزنٍ، لا يزيد فيتلف ويُغرق، ولا يقلُّ فيموت الزرع والضرعُ.. مثَّل تعالى لموت الأرض، بموت البشر، فكما تكون الأرض ميِّتةً مجدبة قاحلة، فتحيا بالمطر، كذلك يحيى الله الموتى من البشر!!

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي وهذا الإله المبدع، هو الذي خلق الأصناف والأنواع كلَّها، من النبات والإنسان، والحيوان، والشجر،

لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ
ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ
﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ
ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾

والثمر وغيرها، وسخَّر لكم ما تركبونه في أسفاركم، السفن في البحر، والإبل في البر ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي لتستقروا وتعلوا على ظهور ما تركبونه من السفن والأنعام، ثم تتذكَّروا نعمة ربكم الجليلة عليكم، فتشكروه بألسنتكم وقلوبكم، وتقولوا عند ركوبكم: الحمد لله الذي سخَّر لنا هذا المركوب، وما كنا مطيقين ولا قادرين على ركوبه، لولا تسخير الله لنا ذلك!! هذه الإبل والسفن، هي التي كانت في زمن نزول القرآن، وأما في زماننا فقد تعددت وسائل الركوب والراحة، من قطارات، وسيارات، وطائرات نفَّاثة، وغيرها من المخترعات التي علَّمها الله للبشر ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ فسبحان من سخَّر ويسَّر، وخلق فأبدع!! ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي وتقولوا: إنا راجعون إلى الله تعالى بعد هذه الحياة، والغرضُ أن يتذكَّر الإنسان أيضاً «السفرة الكبرى» وهي السفر إلى الدار الآخرة، التي لا بدَّ منها، لينال كل إنسان جزاءه.. ولمَّا ذكر تعالى اعتراف المشركين، بأن خالق الكون هو الله رب العالمين، ذكر ما يدلُّ على سفههم وجهلهم، فقد زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن الله نكح من الجن، فولدت له الملائكة، وهو افتراء عظيم شنيع، تنَزه الله عنه ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي جعل السفهاء المشركون، لله جزءً من عباده، وهو زعمهم أن الملائكة بناتُ الله، وعبَّر عن الولد بالجزء، لأنه بعضُ أبيه وجزء منه، فكيف يكون لله ولد، وهو منَزه عن الشبيه والنظير؟ إن الإنسان لشديد الكفر، واضح البهتان، ولفظ ﴿كفور﴾ من صيغ المبالغة، وهي تدل على فظاعة الجرم وشناعته، وفي الآية تعجيب من جهلهم بعظمة الله وجلاله، وتنبيه على سخافة عقولهم، حيث وصفوا ربهم بما لا يليق به، ولهذا جاء الإنكار عليهم والتشنيعُ، فقال سبحانه ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾؟ أي هل اتخذ الرحمن لنفسه البنات، واختار لكم البنين؟ كأنه يقول: أَمَا تخجلون أن تجعلوا لله ما تكرهون؟ أليس لكم شيء من العقل، يحجزكم أن تجعلوا لله

رفع المساهم

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾

الإناث وأنتم تكرهونهن؟ وتجعلون لأنفسكم البنين الذين تحبونهم؟ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾تقبيحٌ وتشنيع آخر، بأسلوب مُفْحِم، فيه تعجيب من سفههم وحماقتهم، أي وإذا بُشِّر أحدهم بولادة الأنثى، أسودَّ وجهه من سوء ما بُشِّر به، وامتلأ صدره غمًّا وغيظاً، أفما كان من اللياقة والأدب ـ إن كان لهم عقل ـ أن لا ينسبوا »إلى الله ما يسوءهم ويحزنهم؟ وقد كان بعض العرب يهجر بيته، إذا ولدت له زوجته أنثى، وكان الكثير منهم يئدون بناتهم في التراب خشية العار، ثم هم ينسبون إلى الله البنات!! ومن توبيخ إلى توبيخ آخر، يوضِّح القرآن سخافتهم فيقول ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي أيجعلون لله وينسبون إلى مقامه العظيم، من يُربَّى في الزينة، وهو غير قويٍّ في الحجة والجدل، وهنَّ الإناث!!

قال ابن كثير: المرأة ناقصة في الصورة والمعنى، فيكمِّل نقصُ ظاهرها بلبس الحليِّ، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض الشعراء:

وما الحَلْيُ إلاَّ زينةٌ من نَقِيصةٍ

يُتمِّمُ من حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قَصَّرا

وأما نقصُ المعنى، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار، كما قال بعضُ العرب وقد بُشِّر ببنت: (ما هي بنِعْمَ الولد!! نصرُها بكاء، وبرُّها سرقة)!! ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ كفرٌ آخر تضمَّنه قولهم الشنيع، **والمعنى**: اعتقد السفهاءُ من أهل مكة، أن الملائكة ـ الذين هم أكمل العباد ـ إناث، وحكموا عليهم بذلك، فأين حجتهم؟ وما دليلهم؟ هل شهدوا خلقهم؟ فعلموا أنهم إناث؟ وهو تجهيل لهم، وتهكم بهم!! ستكتب شهادتهم هذه في صُحف أعمالهم، ويُسألون يوم القيامة عن هذا

وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾

الكذب والافتراء!! ولمَّا أفحمهم، وأقام عليهم الحجة بكذب هذا الإدعاء، احتجوا بمشيئة الله، فزعموا أن الله راضٍ عن عبادتهم للملائكة ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي قالوا: لو شاء الله ما عبدنا هذه الملائكة، ولا عبدنا الأوثان، ولمَّا كانت عبادتنا واقعة بمشيئة الله، فهو راضٍ عنا!! قال تعالى تكذيباً لهم ﴿ما لهم بذلك من علم﴾ أي ليس لهم في ذلك حجة ولا برهان، وما هم إلا يكذبون ويفترون على الله ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ هذا ردٌّ آخر على مزاعمهم الباطلة، أي هل وجدوا ذلك الباطل، في كتاب منزل قبل القرآن، أن الملائكة بنات الله، وأن الله يأمر بعبادتهم؟ فهم مستمسكون بهذا الكتاب يعملون بتوجيهاته!؟ ليس عندهم شيءٌ من ذلك، فهم إذاً يفترون ويكذبون على الله!! ثم حكى القرآن حقيقة أمرهم، وبيَّن أنهم في هذه المعتقدات، يقلّدون الآباء والأسلاف، تقليداً أعمى، فقال سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي لم يأتوا بحجةٍ عقلية، أو شرعية على ما زعموا، بل اعترفوا بأنهم يقلّدون آباءهم تقليداً أعمى، بغير نظر، فقالوا: لقد وجدنا آباءنا على طريقةٍ ودين، فنحن نتّبعهم فيما كانوا عليه، ونهتدي بآثارهم ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ أي ما بعثنا قبلك رسولاً من الرسل، في بلدٍ من البلاد إلاَّ قال المتنعمون فيها، الذين أبطرتهم النعمة: إنا وجدنا أسلافنا على ملَّة ودين، وإنَّا مقتدون بهم، فيما كانوا عليه من العبادة، لا نترك طريقتهم!! والآية تسلية لرسول الله ﷺ، ودلالة على أن التقليد هو دينُ المعاندين لرسل الله، في كل عصر وزمان، وأن التنعم، وحب الرئاسة، هو الذي صرفهم عن النظر، إلى فساد التقليد ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي قال كلُّ

فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾

نبيٌ لقومه، حين أنذرهم عذاب الله: أتقتدون بآبائكم، ولو جئتكم بدينٍ هو أهدى وأرشد، مما كان عليه الأسلاف؟ قالوا: إنا كافرون بكل ماجئتم به من التوحيد والإيمان، ونحن ثابتون على ما كان عليه آباؤنا، لا ننفك عنه أبداً!! ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي فانتقمنا من الأمم الكافرة، وعذَّبناهم أشدَّ أنواع العذاب، فانظر كيف كان مصير أولئك الفجرة، المعاندين لرسل الله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذه قصة إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم كفار مكة أنهم على دينه ومذهبه، وهم يعبدون الأصنام، وقد تبرأ إبراهيم منها وحطَّمها، **والمعنى**: أذكر أيها الرسول لقومك عَبدةِ الأوثان، حين قال الخليل إبراهيم لأبيه وقومه المشركين: إنني بريء من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الرحمن ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ أي لكنْ ربي الذي خلقني، وأنار بصيرتي بنور الإيمان، فإنه سيرشدني إلى الدين الحق. ويهديني إلى طريق السعادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وجعل إبراهيم (كلمة التوحيد) باقيةً في ذريته إلى يوم الدين، وأمرهم وأوصاهم أن يستمسكوا بها، كما قال سبحانه ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وقوله سبحانه ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي رجاء أن يرجع إليها، من كان أشرك منهم بالله، فيلْتزموا دعوة التوحيد!! ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ «بل» للإضراب وهو الانتقال من حديث إلى حديث، وفي الآية لفتة لطيفة، توضِّح إمعان قريش في الضلال، وكأنه يقول: لندَعْ حديث إبراهيم وقصَّته، ولْننظر في شأن هؤلاء «طغاة مكة» فقد زعموا أنهم على دين إبراهيم، ولمَّا جاءهم خاتم النبيِّين محمد ﷺ بالحنيفية السمحة «دين إبراهيم» كانوا أول من سارع إلى تكذيبه!! وسبب هذا الفجور

رفع المسلم

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

والطغيان، أننا متعناهم وآباءهم، بأنواع النِّعم والمتاع، فاشتغلوا باللذائذ والشهوات، عن دعوة (التوحيد والإيمان)، ولمَّا جاءهم الرسول المؤيد بالمعجزات الباهرات، قالوا عن القرآن: إنه سحرٌ مبين، واستهزءوا بالرسول ﷺ، وضمُّوا إلى كفرهم السابق، معاندةَ الحق والاستهانة به ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ يقصدون بالقريتين: بلدة مكة، وبلدة الطائف، أي وقال المشركون من طغاة مكة: هلاَّ أُنزل هذا القرآن، على رجل عظيم كبير، غنيٍّ موسر، من أهل مكة أو الطائف؟ يعنون أشراف قريش كالوليد بن المغيرة في مكة، أو «عُروة الثقفي» في الطائف!! استبعدت قريش نزول القرآن على محمد ﷺ، وهو فقير يتيم، لا يملك من حُطام الدنيا شيئاً، واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء الكبار، وهم يعتبرون مقياس العظمة: «الجاه، والمال، والزعامة» فمحمد لم يكن زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، ولا غنياً من أثرياء العرب، فكيف تنزل عليه الرسالة؟ وقد ردَّ الله عليهم هذه السفاهة والحماقة بقوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾؟ أي هل هم يمنحون النبوَّة ويخصُّونَها من شاءوا؟ أو يقترحون أن تكون لفلان الغنيِّ، أو فلان الوجيه من الناس؟ وفيه تعجيبٌ من تحكمهم في شؤون الوحي!! ونحن الذين قسمنا بينهم الأرزاق، فلم نترك أمرها لهم، وإذا كان أمر الرزق ـ وهو تافه حقير ـ لم نتركه لهم، بل تولَّينا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة ـ وهو عظيم وخطير ـ إلى أهوائهم ومشتهياتهم؟ فأمُر النبوَّة راجعٌ إلى الله، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، لا يُنزل الرسالة، إلاَّ على أزكى الخلق قلباً، وأشرفهم بيتاً، وأزكاهم خُلُقاً، وهو محمد رسول الله، ولو كان يتيماً وفقيراً!! ثم بيَّن تعالى الحكمة، في التفاوت بين الناس في الأرزاق، فقال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي فاضلنا بينهم في الرزق، وجعلناهم مراتب وأصنافاً، فمن ضعيف وقوي، وفقير وغنيّ، وحاكم ومحكوم، ليكون كل واحد منهم مسخراً للآخر، يخدم بعضهم بعضاً،

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

ويحقق بعضهم مصالح بعض، ولو كانوا جميعاً أغنياء، لتعطلت مصالح العباد، فمن الذي يشقُّ لنا الطرق؟ ويستخرج الذهب والمعادن من المناجم؟ ومن يزرع الأراضي ويحرثها؟ ومن الذي يكنس الطرقات، وينظِّف المجاري، لولا حاجة الناس إلى المال؟ ثم قال تعالى ﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ أي ونعمتُه عليك يا محمد بالنبوة والرسالة، خير من جميع كنوز الدنيا، وحُطامها الفاني، فقد أكرمك الله بشرف النبوة، وهو شرف عظيم لا يوازيه شرف، ولا شيء من متاع الدنيا!؟ ثم بيَّن تعالى حقارة الدنيا، ودناءة قدرها عند الله، فقال سبحانه ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ المعارج: جمع مِعْرَج وهو المصعد، والزخرفُ: الذهبُ، والمعنى: لولا خشيةُ أن يفتتن الناسُ، ويصيروا أمة واحدةً في الكفر، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار، فجعلنا لهم القصور العالية، سقفُها من فضة، وسلالمها ومصاعدها من فضة أيضاً، عليها يصعدون ويرتقون ـ كالمصاعد الكهربائية في زماننا ـ ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ وجعلنا لهم أيضاً السرر الوثيرة المرفَّهة، عليها يتكئون ويضطجعون، ﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال ابن عباس: : (وزخرفاً) أي ذهباً، أي جعلنا لهم السقف، والأبواب، والسرر، من الذهب والفضة، وهذا النعيم كلُّه، ما هو إلا متاعٌ موقت زائل، وحقيرٌ تافه، بالنسبة لنعيم الجنة، الذي أعدَّه الله للمؤمنين المتقين خاصة، لا يشاركهم فيها أحد، والآية سيقت لبيان حقارة الدنيا، وهَوَانها عند الله، فلولا خوف الفتنة على المؤمنين، لخصَّ الله نعيم الدنيا بالكافرين، فجعل قصورهم وبيوتهم من الذهب والفضة، بدل الحجارة والخشب، وجعل لهم المصاعد يصعدون بها إلى تلك القصور الشاهقة، وجعل لهم السرر من الذهب، والسقف والأبواب من الذهب والفضة، وهي مزخرفة بأنواع الزينة والجمال، وكلُّ هذا النعيم حقيرٌ وحقير، بحيث يُبذل كلُّه للكافر، والعاقبة المحمودة للمؤمنين، وفي الحديث الشريف (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾

بعوضة، ما سقى كافراً منها جرعةَ ماء) رواه الترمذي، ولعلَّ في هذه الآية، ما يشير إلى هذه الأبنية الشاهقة، التي تسمى (ناطحات السحاب) والتي يصعد الناس إليها بالمصاعد الكهربائية يصعدون إلى خمسين أو سبعين طابق في دقائق معدودة، وما كان يخطر على بال أحد من البشر، أن ترتفع هذه الأبنية الشامخة، فتطاول الجبال، وهنا يظهر لنا سرُّ قوله تعالى: ﴿ومعارج عليها يظهرون﴾ أي يصعدون، وصدق نبوءة خاتم النبيِّين ﷺ حين حدَّث عن علامات الساعة فقال (وأن ترى الحفاة، العُراة العالة، رعاءَ الشاءِ يتطاولون في البنيان) رواه مسلم ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي ومن أعرض وتعامى عن القرآن، وذكر الرحمن، سلَّطنا عليه شيطاناً لإضلاله ﴿فهو له قرين﴾ أي ملازم ومصاحب له لا يفارقه ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي وإن الشياطين ليصدُّون قرناءهم الضالين، عن طريق الهدى والإيمان، ويحسب المفتونون، المخدوعون بتلك التُرَّهات الباطلة، أنهم على بصيرة وعلى هدى، وهذا أسوأ ما يفعله الشيطانُ بصاحبه، يُغويه ويُضلُّه ويوهمه أنه سائر في طريق الهدى، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي حتى إذا جاء المشركُ مع قرينه الشيطان، وقد رُبطا بسلسلةٍ واحدة، قال المشرك لقرينه الذي أغواه: يا ليت بيني وبينك بُعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس الصديقُ والصاحبُ أنت، فقد أغويتني وأضللتني، وكلمة (المشرقين) من باب التغليب، غلَّب المشرق على المغرب، كما يُقال: القمران للشمس والقمر ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي ويُقال لهم يوم القيامة توبيخاً: لن يفيدكم اشتراككم في العذاب، ولن يخفف عنكم ذلك شيئاً، بسبب ظلمكم، فلكل واحدٍ نصيبه الوافر من العذاب!! والمراد أنهم لا يرون الراحة، التي يجدها المكروب، لأن المصيبة إذا عمَّت، خفَّتْ وهانت، فهؤلاء لا يجدون حتى السلوى في اشتراكهم في العذاب ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

رفع المسلم

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا
عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن
قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾

أي هل باستطاعتك يا محمد أن تُسمع من به صمم؟ أو تهدي من كان أعمى القلب والبصيرة؟ شبَّه الكفار بالصُمِّ وبالعمي، فمهما بذل الإنسان جهده ليسمع الأصم، لا يمكن أن يسمع شيئاً، وأن يريه الطريق، لا يمكن أن يهتدي إليه، لفقده حاسة البصر، كذلك هؤلاء الكفار لا يسمعون ولا ينتفعون، فالرسول ﷺ يبالغ في دعوتهم، وهم يبالغون في الغيُّ والضلال!! ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أي إن عجلنا وفاتك يا محمد، قبل أن ننتقم لك منهم، فلا بدَّ من معاقبتهم ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي نريك العذاب الذي وعدناهم به في حياتك، فنحن قادرون عليهم، والمراد من الآية: أنه لا بدَّ من أن ننتقم منهم ونعاقبهم، إمَّا في حياتك، أو بعد مماتك!!

قال ابن عباس: قد أراه الله ذلك يوم بدر، ولم يقبض الله رسوله، حتى أقرَّ عينه بإهلاك أعدائه، وحكَّمه في نواصيهم ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي فتمسَّكْ بالقرآن الذي أنزله الله عليك، فإنك على طريق مستقيم، لا عوج فيه، وهو طريق التوحيد، ودينُ الإسلام ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي وإن هذا القرآن العظيم، لشرفٌ لك عظيم ولقومك، وسوف تُسألون عن هذه النعمة الجليلة، والمراد بقومه: (قريشٌ) وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، ويكفي أنهم صاروا خير أمة أخرجت للناس، بفضل هذا الدين العظيم، الذي شرَّفهم الله بحمل رايته ورسالته، ورحم الله الفاروق عمر حيث قال: (نحن قومٌ أعزَّنا الله بالإسلام، فإذا ابتغينا العزة بغيره أذلَّنا الله) ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ اسأل الذين سبقوك، من الرسل الكرام وأتباعهم، هل هناك أحدٌ دعا إلى عبادة غير الله؟ والمراد إجماع الأنبياء على (دعوة التوحيد)، فليس محمد ﷺ ببدع من الرسل في دعوته إلى توحيد الله، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ذكر تعالى هنا قصة موسى مع فرعون الطاغية الجبار، لينبِّه إلى أن الطغيان

فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾

والعناد واحد، فكما كذَّب فرعون موسى، فكذلك فعل كفار مكة مع سيد المرسلين، والمعنى: ولقد أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه، إلى فرعون وأشراف قومه من الأقباط، فقال له موسى: إني مرسل إليك من ربك، أدعوك إلى عبادته وتوحيده ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي فلما جاءهم بتلك المعجزات الساطعة، ضحكوا سخرية واستهزاءً منه، شأن السفهاء الجهال، وإنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم، أن تلك الآيات من قبيل السحر ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وما نريهم آيةً من الآيات، الباهرة، كالطوفان، والضفادع، والدم، إلاَّ وهي في غاية الكبر والظهور، ومع ذلك أصرُّوا على الكفر، وعاقبناهم بالعذاب الشديد، ليرتدعوا عن غيِّهم وضلالهم ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي ادع لنا ربك، ليكشف عنا العذاب، إننا لمهتدون تائبون، إن رفع اللهُ عنا الكرب والبلاء.. ولننظر إلى سفاهة القوم، فإنهم وهم في الكرب والضيق، وهم يستغيثون لرفع البلاء عنهم، يقولون لموسى ﴿يا أيه الساحر﴾ ولا يقولون: يا أيها الرسول، انتقاصاً لقدر موسى واستهزاء به، وذلك لغاية عتوهم وضلالهم، ثم يقولون ﴿ادع لنا ربك﴾ ويستنكفون أن يقولوا: ادع لنا ربنا، لأنهم كانوا يعتقدون بربوبية فرعون، وهذا أيضاً من طغيانهم وفجورهم ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي فلما رفعنا عنهم العذاب بدعاء موسى، إذا هم ينقضون العهد، ويصرُّون على الكفر والإجرام ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي دعا فرعون زعماء ورؤساء القبط، بعد أن كشف الله عنهم العذاب، وخاف أن يؤمنوا، وقف فيهم خطيباً مفتخراً متبجحاً، وقال لهم يا قوم: أليست بلاد مصر الواسعة الشاسعة ملكاً لي؟ وهذه الأنهار المتفرِّعة من النيل تجري من تحت قصوري؟ أفلا تبصرون عظمة ملكي وسعة

أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ
أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا
ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا
خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

سلطاني؟ فهل عند موسى شيء من هذا العز والسلطان؟ ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي ألستُ أفضل من موسى، هذا الضعيف الحقير؟ الذي لا عزَّ له ولا جاه ولا سلطان؟ والذي لا يكاد يُفصح عن كلامه، لأنه عيُّ اللسان، لا يكاد يُبين الكلام!؟ وقف فرعون يذكّرهم بعظمته ورفعة شأنه، ويتباهى على موسى بما عنده من الذهب، والزينة، والملك، والأنهار الجارية، وهذه نظرة الأحمق الجاهل، المخدوع بالأبّهة والبريق، ولا ينظر إلى الصفات الرفيعة، التي هي حلية الإنسان العاقل، التي تعلي قدره، ثم يزيد في الكبرياء والغرور، فيقول ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي فهلاَّ زيّنه الله بأسورة ذهبية، دليلاً على نبوَّته، أو جاءت معه الملائكة يكتنفونه، خدمةً له وشهادةً على تصديقه!! ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي فاستخفَّ بعقول قومه، واستجهلهم لخفة عقولهم، وخَدَعهم بذلك الكلام البرَّاق، فأطاعوه فيما دعاهم إليهم من عبادته، بسبب فسقهم وفجورهم!! قال تعالى مبيِّناً نهايتهم المشؤومة: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ أي فلما أغضبونا وغاظونا أشد الغضب، أهلكناهم بالإغراق في البحر، وجعلناهم عظة وعبرة، يعتبر بهم السابق واللاحق.. وقد كان فرعون يفخر بالقصور والأنهار، فأهلكه الله بجنس ما تكبَّر به مع قومه، وذلك بالغرق بماء البحر، ومن تكبَّر بشيء، دمَّره الله به، وإنها لعبرة للمعتبرين ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي ولمَّا ذُكر (عيسى ابن مريم) في القرآن، وضُرب به المثل، وقيل لهم: إن كلَّ عابدٍ وما عُبد من دون الله في النار، ضجَّ المشركون، وارتفعت أصواتهم بالصياح، ومعنى ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد أي يصيحون ويضجُّون، ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

أي وقال كفار مكة: هل آلهتنا خيرٌ أم عيسى بن مريم؟ فإن كان عيسى في النار، فلا بأس أن تكون آلهتنا معه!! ما مثَّلوا لك هذا المثل، إلا على وجه الجدال والمكابرة، بل هم قوم شديدو الخصومة، مجبولون على اللَّجاج والعناد، روي أن رسول الله ﷺ قرأ على المشركين قوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ ضجَّ المشركون وارتفعت أصواتهم بالصياح، وقالوا: شتم محمد آلهتنا!! فقال ابن الزَّبعري ـ وكان من طواغيت قريش ـ: يا محمد هل هذا خاصٌّ بآلهتنا، أم بكل من عُبد من دون الله؟ فقال ﷺ: بل لكل من عُبد من دون الله!! فقال ابن الزبعري: قد خصمتُك ورب الكعبة ـ أي غلبتك بالحجة ـ أليست النصارى يعبدون المسيح؟ واليهود يعبدون عزيراً؟ وقومٌ منا يعبدون الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن تكون آلهتنا في النار!! ففرح المشركون وضحكوا، وارتفعت أصواتهم، وظنوا أنهم غلبوا الرسول ﷺ بالحجة، فأنزل الله هذه الآية، ولو تأمَّل الأشقياء الآية لما اعترضوا عليها، لأن الآية تقول ﴿إنكم وما تعبدون﴾ ولم يقل: ومن تعبدون، و«ما» لما لا يعقل، فلم يدخل فيها المسيح، ولا الملائكة، وإنما أراد الأصنام، ويروى أن النبي ﷺ قال له: ما أجهلك بلغة قومك!! «ما» لما لا يعقل!! ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي ما عيسى إلا عبدٌ كسائر الخلق، أنعمنا عليه بالنبوة، وصيَّرناه عبرة عجيبة، كالمثل السائر، حيث خلقناه من غير أب، وفي الآية ردٌّ على من عَبَد عيسى من دون الله، ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي لو شئنا لجعلنا بدلاً منكم ملائكة، يسكنون في الأرض، يعمرونها بطاعة الله، وأهلكناكم جميعاً، **قال مجاهد**: ملائكة يعمرون الأرض بدلاً منكم، والغرضُ من الآية: «بيانُ أنه ليس بين الله وبين أحدٍ من الخلق نسبٌ، لا عيسى، ولا عُزير، ولا الملائكة، إنما هو مقام (الربوبية) ومقام (العبودية) وليس عيسى ابناً لله، ولا شريكاً مع الله، وأن خلقه من أم بدون أب، مظهرٌ من مظاهر القدرة الإلهية ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ ثم إنه علامة على قرب القيامة، ولهذا قال ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي وإن مجيء عيسى، علامة على قرب الساعة ـ القيامة ـ لأن ظهوره من أشراطها، فلا تشكُّوا

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ
قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾
فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ
﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾
ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

في أمر القيامة، فإنها آتية لا محالة، وقل لهم يا أيها الرسول: اتبعوني واسلكوا طريقي، فهذا الإسلام دين الله الحق، الموصل إلى جنات النعيم ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي واحذروا أن يصدَّكم الشيطانُ، عن اتباع دين الإسلام الحق، فإن الشيطان عدوٌّ خبيث، ظاهر العداوة لكم ولذرية آدم ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي ولمَّا جاء عيسى بالمعجزات الواضحات، وبالشرائع البينات، قال لبني إسرائيل: لقد جئتكم بالحكمة الإلهية من عند الله ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي وقد أرسلني الله إليكم، لأبيِّن لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين، فخافوا ربكم في مخالفة أوامره، وأطيعوا أمري فيما أبلِّغه لكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي أنا وأنتم عبيدٌ لله، فقراء إليه، مأمورون بعبادته، هذا طريق واضح لا يضلُّ سالكه، لا اعوجاج فيه ولا التواء!! وهكذا يعلن السيد المسيح أنه عبدٌ لله، وليس له من صفات الألوهية شيء، فكيف عبده النصارى من دون الله؟ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي فاختلف النصارى في شأن عيسى، وصاروا فيه فرقاً وأحزاباً، منهم من يقول: إنه ابن الله، ومنهم من يقول: إنه هو الله، وعيسى، مع أمه ثالثُ ثلاثة، قاتلهم الله أنَّى يؤفكون!؟ ولهذا قال تعالى ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ أي فهلاك ودمار، لهؤلاء الكفرة الفجار، من عذاب يوم القيامة، المؤلم الموجع الشديد ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي هل ينتظر هؤلاء الضالون، إلا أن تأتيهم الساعة فجأة، وهم غافلون عنها، مشتغلون بلذائذ وشهوات الحياة، وحينئذٍ يندمون حيث لا ينفع الندم!! ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي الأصدقاءُ في الدنيا،

يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾
يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ
ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ
ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾

يصبحون يوم القيامة أعداء، إلاَّ من كانت صداقته ومحبته لله، ومن أجل مرضاته، وهم المتقون الذين اتقوا محارم الله ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي هؤلاء المؤمنون المتحابُّون في الله، يناديهم الله فيقول لهم: يا عبادي المؤمنين، الذين تحققتم في العبودية لله، لا خوف عليكم في هذا اليوم العصيب، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا، ثم وضحَّهم تعالى بقوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي الذين صدَّقوا بالقرآن، واستسلموا لحكم الرحمن، ادخلوا الجنة أنتم وأهليكم وأزواجكم ﴿تحبرون﴾ أي تُسرُّون وتنعَّمون فيها مع غاية البهجة والسرور ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي يدور عليهم خدم الجنة، بأوانٍ من الذهب، فيها ألوان الطعام، وأقداح من ذهب فيها أنواع الشراب، مما لذَّ وطاب، وفي الجنة كلُّ ما تشتهيه النفوس، من أنواع اللذائذ والمشتهيات، وممَّا تُسرُّ به العيون من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد البهية، مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما جاء ذلك في الحديث القدسي، وفوق هذا النعيم، لهم الخلود الدائم الأبدي في الجنة، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وهذه جنة الخلد، التي أورثكم الله إيَّاها، بسبب أعمالكم الصالحة، التي فعلتموها في الدنيا ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير، تأكلون منه تفكهاً وتلذذاً، دون فناءٍ ولا انقطاع!! ولمَّا ذكر تعالى مصير السعداء، أعقبه بذكر مصير الأشقياء، فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي إن الأشقياء المجرمين، الغارقين في الضلال

رفع المسابهم

وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾

والإجرام، هم في عذاب الجحيم، مخلَّدون فيها أبداً، لا يخفَّف عنهم العذاب لحظة، وهم في ذلك العذاب (مبلسون)، أي يائسون قانطون من رحمة الله، ويائسون من النجاة ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وما ظلمناهم بعقابنا لهم، ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم، لتعريضهم لها للعذاب الخالد، بأعمالهم الخبيثة المنكرة ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ أي ونادى الكفار الفجار مالكاً خازن النار، قالوا: يا مالكُ ادعُ لنا ربك، حتى يميتنا ويهلكنا، لنستريح من هذا العذاب الشديد!! فيجيبهم بعد ألف عام: إنكم مقيمون في العذاب، لا خلاص لكم منه ولا نجاة، **قال ابن عباس**: مكث مالك ألف سنة لا يجيبهم، ثم ردَّ عليهم الجواب بقوله ﴿إنكم ماكثون﴾ أي باقون مخلَّدون في العذاب، ثم بيَّن تعالى السبب فقال: ﴿لقد جئناكم بالحق﴾ الساطع المبين، ولكنكم كنتم كارهين لدين الله، مكذبين لرسوله، والمراد نفرتُهم عن الرسول، وعن القرآن، وشدة بغضهم لقبول الحق ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي هل أحكم هؤلاء الكفار الفجار أمرهم، في الكيد لمحمد ﷺ وشرعه ودينه؟ وتآمروا فيما بينهم لقتله أو طرده من مكة؟ فإنا محكمون أمرنا في نصرته وإعزازه، وردِّ كيدهم في نحورهم!! والآية تشير إلى تآمرهم على الرسول في (دار الندوة) وقد خيَّب الله مساعيهم، ونجَّى رسوله من شرهم، وقد كانوا يتحدثون بهذا الأمر، سرّاً في أنديتهم، ويتشاورون فيما بينهم في أمره ﷺ، فنزل قوله سبحانه ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي هل يظنون أنا لا نعلم ما تحدثوا به فيما بينهم سرّاً، من التآمر على الرسول، وما أضمروه في أنفسهم من الكيد له؟ بلى نعلمه، وإن أمرهم لا يخفى علينا، وملائكتنا الحفظة تكتب أعمالهم وإجرامهم، والسرُّ: ما يُحدث به الإنسانُ نفسه، والنجوى: ما تكلموا به بينهم بطريق الخفاء ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين -

سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

على سبيل الفرض والتقدير -: لو كان لله ولدٌ كما زعمتم وادَّعيتم، فأنا أول من يعبده، لأنني عبد مطيع لأوامره، ولكنَّ هذا مستحيل، لأن الله ليس له زوجة ولا ولد، **وقال البخاري** ﴿فأنا أول العابدين﴾ أي الآنفين، أي فأنا أول من خالفكم ووحَّد الله تعالى، وهذا قول مجاهد، **والقول الأول أظهر** ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس عمَّا يصفه به الكافرون، من نسبة الذرية والبنيين له، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي اتركهم يا محمد في جهلهم وضلالهم يتخبَّطون، إلى أن يأتي ذلك اليوم الرهيب، الذي يجدون فيه جزاءهم، ويعلمون مصيرهم ومآلهم، وهو وعيد وتهديد ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (إلهٌ) بمعنى: معبودٌ، **والمعنى**: وهو جلَّ وعلا معبودٌ في السماء، ومعبودٌ في الأرض، يعبده الملائكة في السماء، كما يعبده المؤمنون في الأرض، وهو الحكيمُ في صنعه، العليمُ بشؤون خلقه، وما فيه مصالحهم ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي تمجَّد وتَعَظَّم الله، المالكُ لجميع ما في السموات والأرض، من الملائكة، والإنس، والجن، وسائر المخلوقات، التي بين الأرض والسموات، فهو الخالق لها، وهو المالك لكل ذلك ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وعنده وحده علمُ وقت مجيء الساعة، لا يعرف وقتها إلا هو سبحانه، وإليه مرجع جميع الخلائق للحساب والجزاء ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يقدر أحد أن يشفع لأحدٍ، ممن يعبدونهم من دون الله، إلاَّ لمن شهد بالحقِّ، وأقرَّ لله بالوحدانية، وهم الملائكة، والأنبياء، والشهداء، فهؤلاء تنفع شفاعتهم، لأنهم يقرون لله بالوحدانية ويعرفون عظمة الله وجلاله، أما الأوثان والأصنام وسائر من عُبد من دون الرحمن، فلا تنفع شفاعتهم

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

لأحدٍ من أهل الشرك، وفي الآية الكريمة ردٌّ على المشركين في قولهم: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أي ليشفعوا لنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي ولئن سألتَ المشركين: مَنْ خَلَقهم؟ ليقولن: الله خلقنا!! فهم يعترفون بأن الخالق لهم، هو الله ربُّ العزة والجلال، ثم يعبدون غيره، فكيف يُصْرفون عن عبادة الرحمن، إلى عبادة الأوثان؟ مع اعترافهم بأن كلَّ ما في الكون من خلق الله عز وجل؟ وهذا تعجيب من حالهم وتناقضهم في العبادة ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي وقول محمد ﷺ في شكواه لربه: يا رب إن هؤلاء قوم متكبرون متجبرون، لا يؤمنون بك ولا برسولك، فاصفح يا محمد عنهم أي دعهم وسلّمْ أمرك لربك، فسوف يرون عاقبة إجرامهم وافترائهم على الله!!.

انتهى تفسير سورة الزخرف

● ● ●

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

تفسير سورة الدخان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الحروف المقطعة ﴿حم﴾ للإشارة إلى إعجاز القرآن، كما تقدم مراراً، ثم قال ﴿والكتاب المبين﴾ أي أقسم لكم بالقرآن العظيم، الواضح في إعجازه، البيِّن في أحكامه، الفارق بين الهدى والضلال، أقسمُ لكم على أن هذا القرآن، قد أُنزل في أفضل الليالي، وأفضل الشهور، في ليلة عظيمة مباركة هي (ليلة القدر) وهي في ليلة من ليالي شهر رمضان ﴿إنا كنا منذرين﴾ أي أنَّا كنا محذِّرين البشر من عقابنا، فلم نترك أحداً من الخلق بدون إنذار، لتقوم الحجة عليهم ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ أي في ليلة القدر المباركة، يُفصل من اللوح المحفوظ، أمرُ السنة كلِّها، وما يكون فيها من الأرزاق، والآجال، والأعمال، تُلقى إلى الملائكة الحفظة، بأمرنا وتدبيرنا ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي أنزلنا القرآن، وأرسلنا الرسل، رحمة منَّا بالعباد، لهدايتهم وإرشادهم، لأن حكمتنا اقتضت أن لا نترك البشر، دون هداية وتذكير ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي هذا الرب الرحيم، هو رب الكون كلِّه، سمائه وأرضه، وما فيها من المخلوقات، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين، فاعرفوا أن الخالق هو الله رب العالمين ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي لا معبود بحق إلاَّ هو سبحانه، ولا خالق سواه، فهو المحيي المميت، القادر الحكيم، الذي ينبغي أن يُعبد ويُطاع، رب الأولين والآخرين، من

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

السابقين واللاحقين ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي ليسوا موقنين في قولهم: الله خالقنا، بل هم يشكُون في القرآن، والرسول، وفي أمر البعث والنشور، وهم لاهون غافلون، عما ينتظرهم من الهول والعذاب ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أي انتظر يا محمد عذابهم، يوم تأتي السماء بدخانٍ كثيف، يكاد يُزهق الأرواح، ويكتم الأنفاس، ويجعل الإنسان يترنَّح كالسكران ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي يحيط العذاب بأولئك الكفار، من كل جانب، ويعمُّهم بهوله وشدته، فيستغيثون قائلين: يا ربنا اكشف عنا العذاب، نحن مؤمنون برسولك وكتابك، إن كشفته عنَّا ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ أي من أين لهم أن يتعظوا ويتذكَّروا؟ وحالهم معروفٌ حين جاءهم رسول عظيم، هو (محمد خاتم المرسلين)؟ جاءهم بالمعجزات الباهرة، فكذبوه واستهزءوا به، وقالوا: إنه يتلقى القرآن من رجلٍ أعجمي، وقال بعض السفهاء عنه: إن محمداً رجل مجنون، فهل يُتوقَّع من أمثال هؤلاء أن يتذكروا، ويتَّعظوا؟ **قال ابن مسعود**: (إن قريشاً لمَّا استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنيِّ يوسف، فأصابهم قحطٌ وجهد، حتى أكلوا العظام والميتة، فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجوع، فقالوا ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ فقيل له: إن كشفنا عنهم عادوا!! فدعا رسول الله ﷺ ربه، فكشف عنهم، فعادوا، فانتقم الله منهم يوم بدر، فذلك قوله تعالى ﴿**يوم تأتي السماء بدخان مبين**..﴾ إلى قوله جلَّ ذكره ﴿**إنا منتقمون**﴾ رواه البخاري ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ أي سنكشف عنكم يا معشر المشركين العذاب، زمناً قليلاً، ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ أي وذكِّرهم يوم نبطش بهم بطشتنا الكبرى، انتقاماً لك منهم، والبطشُ

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

معناه: الأخذُ بشدة وعُنفٍ، والمراد به (يوم القيامة)، حين لا يجدون لهم من ينصرهم من عذاب الله، وهذا قول ابن عباس، أن البطشة الكبرى (يوم القيامة) وقال ابن مسعود (يوم بدر) حيث قُتل من صناديدهم سبعون، وأُسر منهم سبعون، والراجح كما يقول ابن كثير والرازي: أنه يوم القيامة، لأن الله وصف البطشة بأنها (كبرى) وهذا إنما يكون يوم القيامة، وإن كان يوم بدر عظيماً وكبيراً أيضاً ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي ولقد ابتلينا بالنعمة والجاه والسلطان، قبل كفار قومك، (قوم فرعون)، وبعثنا إليهم رسولاً كريماً، ذا شرف ومكانة، من أكرم عباد الله، وهو «موسى» الكليم عليه السلام، فقال موسى لفرعون وأتباعه: ادفعوا إليَّ عبادَ الله، وأطلقوا سراح بني إسرائيل، من الذل والاستعباد، فأنا رسول ناصح لكم، مرسل من رب العالمين ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي وأنصحكم أن لا تتكبروا على الله، بالاستخفاف بدينه ورسوله، إني جئتكم بالمعجزة الواضحة، الدالة على صدق رسالتي، فاقبلوا نصحي!! ومع هذا البيان الواضح، فإن الطغاة من قوم فرعون، توعَّدوه بالقتل فاستجار بربه، فقال ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي وإني التجأت إلى الله، واستجرتُ به أن تقتلوني، وإن لم تؤمنوا برسالتي، فكفوا شرَّكم عني، واتركوني وخلُّوا سبيلي!! ولكنَّ الطغيان يأبى مهادنة الحق، فيلجأ إلى البطش والتنكيل، لذلك دعا عليهم موسى، لما رأى أن شرَّهم قد استفحل ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ أي فدعا موسى عليهم، لما يئس من إيمانهم وصلاحهم، وقال يا رب: إن هؤلاء قوم فُجَّار، مغرقون في البغي والإجرام، فانتقم منهم وأهلكهم!! قال تعالى ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ في الكلام حذفٌ تقديره: فأوحينا إليه وقلنا له: اخرج بعبادي

كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

ليلاً من أرض مصر، فإن فرعون وقومه سيتبعونكم، فإذا وصلت البحر، فاضربه بعصاك، ثم سرْ عليه أنت وأتباعك المؤمنون، ثم اتركه ساكناً على هيئته، بعد أن تجاوزه، فإن فرعون وجنده سيغرقون في البحر، لأنهم إذا رأوه ساكناً على حالته دخلوا فيه، فيطبقه الله عليهم، ويغرقهم فيه.. ثم ذكر تعالى نهايتهم المشئومة، وما آلوا إليه من الهلاك والدمار، فقال سبحانه ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ أي لقد تركوا كثيراً من الحدائق والبساتين، والأنهار والعيون الجارية، والمزارع الواسعة التي فيها أنواع الخضرة والنضرة، والفواكه والثمار؟ وكم تركوا فيها من ﴿مقام كريم﴾ وهي المساكنُ والدُور، والقصُور الأنيقة، وقد كانوا في ديارهم ناعمين بالرفاهية والهناء، وكمال السرور والحبور، وقد زال عنهم كلُّ ذلك ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي أغرقناهم وأورثنا ملكهم وديارهم لقوم آخرين، هم (بنو إسرائيل) كما ذكر تعالى ذلك صريحاً في الشعراء، فقال ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ فإن الله ملَّكهم أرضَ مصر، فصاروا لها وارثين، بعد أن كانوا فيها مُستَعْبَدين!! لقد ترك الطغاة من قوم فرعون، ما خلَّفوه وراءهم من (الكنوز، والبساتين، والقصور، والمتاع، والزروع) فقد غرقوا في البحر، وتركوا تلك الأموال والثروات، غنيمة باردة لبني إسرائيل ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي ما تأثر لموتهم أحد، ولا حزن عليهم إنسان، وما كانوا ممهلين إلى وقت آخر، بل عُجِّل لهم العذاب، فأهلكهم الله بالغرق، والآيةُ وردت مورد التمثيل، يقول العرب: كُسِفتْ لموته الشمس، وبكت عليه السماء، أي كانت المصيبة به فادحة، وهنا قال: ﴿فما بكت عليهم السماء﴾ أي لم يُصب بفقدهم وهلاكهم أحد، من أهل السماء والأرض، وقيل هو على الحقيقة، **قال ابن كثير**: أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء، فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم، فلهذا استحقوا أن لا يُمهلوا ولا يُؤخَّروا، لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم، وفي الحديث الشريف (ما من مؤمن إلاَّ وله في السماء بابان: باب ينزل منه رزقُه، وباب يصعد منه عملُه، فإذا مات بكيا عليه)

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا
مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم
مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا
مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾
أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

ثم تلا ﷺ ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض..﴾ الآية، رواه الترمذي ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي نجينا المؤمنين من بني إسرائيل، من استعباد فرعون وطغيانه، من تسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة، خلَّصناهم من الاستعباد، عذاب فرعون الطاغية، إنه كان متكبراً جباراً، مسرفاً في الشر والفساد، يسومهم سوء العذاب ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي اصطفيناهم وشرَّفناهم على أهل زمانهم، لصبرهم وإيمانهم، على علم منا باستحقاقهم ذلك ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي أعطيناهم من الحجج والبراهين، وخوارق العادات، مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى، ما فيه اختبار ظاهر لهم، لننظر كيف يعملون؟ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي إن كفار مكة ليقولون: ليست هناك إلا موتة واحدة، وإذا متنا فلا حياة، ولا بعث، ولا نشور، وما نحن بمبعوثين بعد الموت!! والتعبيرُ عن كفار مكة بـ (هؤلاء) للتحقير والإهانة، كأنه يقول: إن هؤلاء السفهاء الحمقى من قومك، ليقولون: لن نموت إلاَّ موتة واحدة ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي فأحيوا لنا آباءنا وأجدادنا السابقين، إن كنتم صادقين، في دعوى أن هناك بعثاً بعد الموت، حتى يخبرونا بما جرى وحدث لهم!! وهذا يدلُّ على غباءٍ وسَفَهٍ في تفكيرهم، فإن البعث إنما يكون بعد انتهاء الدنيا، لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وفراغها وذهابها، يعيد اللَّهُ الناسَ إلى الحياة مرة أخرى خلقاً جديداً، ويجعل الكافرين لنار جهنم وقوداً!! ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي هل كفار مكة أقوى وأشدُّ، أم أهلُ سبأ «ملوك اليمن»؟ الذين كانوا أكثر أموالاً، وأعظم نعيماً من قريش؟ وكذلك الذين كانوا قبلهم، كقوم عاد وثمود، من الأمم الضالة العاتية؟ أهلكناهم

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾

بسبب إجرامهم، مع ما كانوا عليه من القوة، والشدة، والمنعَة؟ أفلا يخافون إن يهلكهم الله- كما أهلك من قبلهم من الطغاة المكذبين!؟ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ما خلقنا السموات والأرض، وما بينهما من المخلوقات العجيبة، إلاَّ عن حكمةٍ وقصدٍ وتدبير، ولم نخلقهما للَّهو والعبث، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك، فينكرون البعث والجزاء ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي إن يوم القيامة، موعدُ حساب الخلائق أجمعين، وفي ذلك اليوم الرهيب، لا يغني قريبٌ عن قريب، ولا حبيبٌ عن حبيب، لأن كلَّ إنسان مرتهنٌ بعمله، ومشغول بنفسه، ولا تنفع القرابةُ والشفاعة، إلا لمن رحمه الله، وهو المؤمن الذي يموت على الإيمان، فإنه تنفعه شفاعة الأنبياء، كما ورد في الحديث الصحيح (لكل نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، وقد تعجَّل كلُّ نبي دعوته، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ ـ إن شاء الله ـ من مات من أمتي، لا يشرك بالله شيئا) رواه البخاري، وكأن الآية تقول: لمَّا كان هذا الكون مخلوقاً عن حكمة وتدبير، فلا بدَّ إذاً من دار جزاء، يجازىٰ فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وإلاَّ كان هذا الوجودُ كلُّه عبثاً، وتنزَّه الله عن ذلك.. ثم يأتي الحديث عن المجرمين، ومآلهم المشئوم، وما يلقونه من أهوال وشدائد في الآخرة، فيقول سبحانه ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي إن هذه الشجرة الخبيثة، التي تنبت في قعر جهنم، وهي (شجرة الزقوم)، هي طعام كل كافرٍ فاجر، لا طعام له غيرها، وهي في شناعتها وفظاعتها، كالنحاس المذاب الذي انصهر، واشتدت حرارته، فهو يجرجر في البطن، كغليان الماء الشديد الحرارة، يَغْلي

خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾

في بطون أهل النار، كغليان القِدْر بالطعام ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ أي يُقال لزبانية جهنم، خذوا هذا الشقيَّ الفاجر، فجرُّوه من تلابيبه بعنفٍ وشدة إلى وسط الجحيم، ثم ألقوا فوق رأس ذلك الفاجر، الحميمَ وهو الماء المغلي، الذي يشوي الجلد والوجه، ويقال له على سبيل السخرية والاستهزاء: ذق هذا العذاب، فإنك أنت المعزَّزُ المكرَّم عندنا!! وأيُّ عزَّة وكرامة، لمن يلقىٰ هذه الإهانة؟ نزلت هذه الآيات في (أبي جهل) وأمثاله، فقد كان عدوُّ الله يقول لأصحابه: إن محمداً يَعِدُنا بطعامٍ في جهنم هو «الزقوم» هل تدرون ما هو الزقوم؟ إنه الزُّبدُ، والرُّطبُ، ثم يأمر جاريته أنْ تأتيهم بالزبد والرُّطبُ النفيس، ويقول لأصحابه: تزقّموا فهذا هو الزقوم، الذي يعدكم به محمد، فأنزل تعالى هذه الآيات فيه، وأخبر أن شجرة الزقوم هي طعام كل أثيم فاجر، وليست كما يقول الشقيُّ الخاسر (أبو جهل) إنها: (الزبدُ والتمر) وإنما هي العلقمُ والجمر، وروي أن رسول الله ﷺ لقي ذات يوم أبا جهل، في أحد طرقات مكة، فقال له ﷺ: إن الله أمرني أن أقول لك: ﴿أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى﴾ أي ويلٌ لك، ثم ويلٌ لك!! فقال أتتوعدني يا محمد؟ واللهِ ما تستطيع أنت وربك أن تفعلا بي شيئاً!! إني أعزُّ وأكرمُ أهل هذا الوادي، وأمنعُ أهل البطحاء، وأنا العزيزُ الكريم، فأذلَّه الله وقتله يوم بدر، وأنزل فيه هذه الآية ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ ثم قال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ أي هذا العذاب هو ما كنتم تشكُّون فيه، وتنكرونه في الدنيا، فذوقوه اليوم!! ولمَّا ذكر تعالى ما أعدَّه للمجرمين من العذاب والنكال، ذكر ما أعدَّه للمؤمنين الأبرار، من التكريم والنعيم في جنان الخلد والسعادة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي إن هؤلاء الأبرار، الذين اتقوا ربهم في الدنيا، وخافوا عذابه، إنهم اليوم في الجنة، في مكان أمين، يأمنون فيه من جميع المخاوف، وهم منعَّمون، في حدائق وبساتين ناضرة، وعيون جارية، ولباسهم في الجنة، الحريرُ

كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

الرقيق منه وهو «السندسُ» والسميكُ منه الذي له بريقٌ وَلمَعان، وهو «الاستبرق» ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي وكما نعَّمناهم في الجنة بأنواع النعيم، كذلك أنكحناهم بنساءٍ من الحور العين، الجميلات الواسعات العيون، اللواتي يحار فيهن الطرفُ، من شدة الحسن والجمال!! ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي يطلبون في الجنة من جميع ما يشتهون من الفواكه والثمار، آمنين من كل ما يسوءهم، ويكدِّر صفوهم، لأن الجنة دار الأمان، فهم آمنون من الأسقام، والأوجاع، والأمراض، فلا تعب في الجنة، ولا وَصَب، ولا خوف، ولا نَصَب ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي لا يذوقون في الجنة الموت، إلا الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا، ونجَّاهم ربهم من عذاب جهنم الأليم، وقد جاء في الحديث الشريف (أنه يؤتى بالموت يوم القيامة، على صورة كبش أملح، ويُنادَى أهلُ الجنة وأهلُ النار، ويقال لهم: أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه، فيذبح الموتُ، ثم يقول المنادي: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت) رواه البخاري ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي كلُّ هذا النعيم تفضلٌ وكرمٌ من رب العزة والجلال، لأهل الجنة السعداء الأبرار، وهذا هو الفوز الحقيقي، الذي لا فوز أعظم ولا أكبر منه، لأنه الفوز بالسعادة الكبرى الدائمة، كما قال سبحانه ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ ثم ختم الله السورة الكريمة بقوله ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي فإنما جعلنا القرآن سهلاً ميسراً، وأنزلناه بلغتك بلسان العرب، كي يفهمه قومك، ويتذكروا ويتعظوا بآياته البينات، ويعملوا بموجب أحكامه، فانتظر يا محمد ما يحلُّ بهم، إنهم منتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة؟ هل لهم أم لك؟ وهو وعد للرسول أكيد، ووعيدٌ للمشركين شديد!!.

انتهى تفسير سورة الدخان

● ● ●

رفع المسهم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

تفسير سورة الجاثية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الحروفُ المقطَّعة ﴿حمٓ﴾ للإشارة على إعجاز القرآن، كما تقدَّم مراراً، ثم بيَّن تعالى أن هذا الكتاب المجيد، منزَّلٌ من عند الله، خالق الأكوان، ومبدع الإنسان، (العزيز) في ملكه، (الحكيم) في صنعه، وفي هذا التقرير، ردٌّ على السفهاء من كفار مكة، الذين زعموا أن القرآن من تنزل الشياطين ﴿وما تنزلت به الشياطين. وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾ ثم بعد الحديث عن الآيات التنزيلية، جاء الحديث عن الآيات الكونية، المعروضة في السموات والأرض، فقال سبحانه ﴿إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين﴾ أي إن في خلق السموات، وما فيها من روائع الآيات البديعة، من نجوم زاهرات، وشمس، وقمر، وفي الأرض وما فيها من جبال، وبحار، وأنهار، وخلائق عجيبة لا يحصيها إلا الله، لعلامات باهرة على قدرة الله، وحكمته، ووحدانيته، لأهل البصيرة والإيمان ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي وفي خلقكم أيها الناس من نطفة، ثم من علقة، متنقلة في أطوار مختلفة، ﴿وما يبث﴾ أي وما ينشره تعالى ويُفرِّقه من أنواع المخلوقات التي تدبُّ على وجه الأرض، من الأنعام، والزواحف، والسباع، والظباء، والوحوش الكاسرة، كل هذه دلائل وبراهين، لقوم يوقنون بقدرة الله، وعظمته، وجلاله ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي وفي تعاقب الليل والنهار، بنظام محكم دقيق، وفيما أنزله الله من المطر، الذي به حياة الخلق والبشر، وسمَّى الله المطر رزقاً، لأن

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

به تحصيل أنواع الرزق، فأحيا به الأرض بعد جدبها ويبسها، بأصناف الزروع، والنبات، والثمرات، وتقليب الرياح من جهة إلى جهة، حارة وباردة، ﴿آيات﴾ أي علامات ساطعة واضحة، على قدرة الله ووحدانيته، لقوم لهم عقول نيِّرة، وبصائر مشرقة ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي هذه دلائل الله وحججُه وبراهينه، نقصُّها عليك يا محمد بالحقِّ الساطع المبين، وإذا لم يصدِّق قومك كفار مكة بكلام الله، فبأي حديث وكلام يؤمنون ويصدِّقون؟ والغرضُ استعظامُ تكذيبهم للقرآن، مع وضوح بيانه وإعجازه!! ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي هلاك ودمار، لكل كذَّاب، كثير الآثام والجرائم، وصيغةُ فعَّال (كذاب) وفعيل (أثيم) للمبالغة ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يسمع آيات القرآن، تُقرأ عليه، وهي في غاية الوضوح والبيان، ثم يستمرُّ على كفره، ويتمادى في فجوره وطغيانه، كأنه لم يسمع كلام الله، فبشره يا أيها الرسول، بعذاب شديد موجع، في غاية الشدة والإيلام، والبشارة بالعذاب (للتهكم والسخرية)، فإذا كان هذا الشقيُّ لا يسمعُ النذير، فليأته العذاب في صورة البشير!! ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي وإذا بلغه شيء من آيات الذكر الحكيم، سخر واستهزأ منها، فله عذابٌ مع الذل والإهانة، والخزي والتحقير، وهي الجزاء المناسب، لمن يستهزىء بآيات الله ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم على كفرهم وفجورهم نار جهنم، تنتظرهم، وهم لا محالة واصلون إليها، ولا ينفعهم ما ملكوهُ في الدنيا من المال والبنين، ولا ما عبدوه من دون الرحمٰن، من الأصنام والأوثان، ولهم عذاب فظيع شنيع!! لقد نوَّع لهم تعالى فنون العذاب فقال: ﴿أليم، مهين، عظيم﴾ في مقابلة تفننهم في السخرية والاستهزاء بكلام الله، جزاءً وفاقاً.. ثم بيَّن تعالى أن هذا القرآن، المنزل على خاتم الأنبياء، هو طريق الهداية

هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

والرشاد، لمن أراد الله له الخير والسعادة، فقال سبحانه ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي هذا القرآن في غاية الكمال، وهو الحقُّ بعينه الذي لا يشوبه الضلال، لمن آمن به واستنار بأنواره، والذين جحدوا بالقرآن، مع سطوع حججه، وظهور إعجازه، لهم عذاب من أشدِّ أنواع العذاب، مؤلم موجع، لا يُوصف من شدته وغلظته، والرجزُ في اللغة: أشدُّ العذاب، فهو تأكيد بعد تأكيد، وتهديد بعد تهديد، يناسب جرم من كفر بآيات الله!!

أشار تعالى في الآيات السابقة، إلى دلائل القدرة والوحدانية، وأمر بالنظر في آياته الكونية المبثوثة في الكون، فحيثما مدَّ الإنسان بصره، رأى آيات الله العجيبة!! فهذه السموات بأجرامها الضخمة، وأفلاكها الهائلة، وهي تدور في هذا الفضاء الرهيب، لا يصطدم نجم بنجم، ولا يدخل كوكب في مدار كوكب آخر، والمجموعة الشمسية ـ على ضخامتها ـ بالنسبة إلى هذا الكون الفسيح، أقلُّ بكثير من نسبة قطرة الماء، إلى مياه المحيطات كلها، فالكون واسع فسيح، لا يعلم مداه إلاّ ربُّ العزة والجلال، ولهذا لفتَ القرآن أنظار البشر للتفكر في خلق السموات، وهذه الأرض التي نعيش عليها، ذرة أو هباءة بالنسبة إلى النجوم والمجرات، ولولا النظام الذي وضعه الخالق فيها، لتاهت هذه الأرض في هذا الفضاء الوسيع، ولكنَّ الله سبحانه بحكمته وتدبيره، نظَّم ارتباطها وتناسقها بهذا الكون العجيب، فجعل بين الشمس والأرض مسافة محدودة، وهي في حركتها مع الشمس، لا تقترب ولا تبتعد عن هذه المسافة، التي قدَّرها الله لها، ولو اقتربت الشمس منا عُشْر هذه المسافة، لأصبحت الأرض كتلةً من الفحم الحجري الأسود، احترقت بمن فيها، ولو ابتعدت عنا عُشْر هذه المسافة، لتجمدت الأرضُ بمن عليها، ثم هذا التناسق والالتئام بين (الإنسان، والحيوان، والنبات)، آية من الآيات العجيبة، الإنسان يتنفس الهواء، فيأخذ (الأوكسجين) ويطلق غاز الفحم، والشجر والنبات يُطلق (الأوكسجين) ويأخذ غاز الفحم، فهناك تناسق بين حاجة الإنسان، وحاجة النبات!! وحول الإنسان مخلوقات متنوعة، من دواب، وأنعام، ووحوش، وزواحف، وحشرات، وقد نظمت حياتها تنظيماً دقيقاً، فالأسود مثلاً لا تتوالد كما تتوالد الأغنام والأبقار، ولو كانت تتناسل مثلها، لما أبقت على إنسان ولا غذاء، ولهاجمت الناسَ في دورهم ومنازلهم، وافترست الأطفال والرجال!! والذبابة الواحد- تعيش أسبوعاً أو أسبوعين، وهي تبيض مئات الألوف، فلو أُفلت لها الزمام، فعاشت سنة أو

رفع المسهم

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

سنتين، لكان الذباب يغطي الأجساد، ويأكل العيون والشفاه، ولما أمكن العيش في هذا الجو الوبيل، ولكنَّ قدرة الله المدبِّرة تضبط الأمور، في تقدير دقيق، محسوب فيه حساب جميع المخلوقات، ولهذا السرُّ البديع، لفت القرآن الأنظار، إلى التفكر في هذا الكون، وما خلق الله فيه من أنواع المخلوقات العجيبة، كما وضحتها الآيات الكريمة ﴿إن في خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون﴾ فسبحان من خَلَق فأبدع!! ونظَّم فأحكم التدبير، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى!! ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي الله جلَّ وعلا بقدرته وحكمته، هو الذي ذلَّل لكم البحر، على سعته وعظمه، لتسير السفن على سطحه، دون أن تغوص في أعماقه، ولولا هذا التسخير والتذليل، لما استطاع الإنسان أن يقطع البحار، ويجوب القارات!! ولتنتفعوا بما خلقه لكم من أنواع الأسماك، وتستخرجوا منه أنواع الحلية، من اللؤلؤ، والمرجان، لأجل أن تشكروا ربكم على نِعَمه الجليلة ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي وسخَّر لكم كل ما في هذا الكون، من (شمس، وقمر، ونجوم، وجبال، وأنهار، ونبات، وثمار) كلُّ هذا من فضله وجوده، وإحسانه على عباده!! فَمَنْ هذا المخلوق، الضعيف، الذي يحظى بكلِّ هذا الفضل، من رعاية الله وعنايته؟! أفَلاَ يستحقُّ هذا الإله العظيم الجليل، أن يُعبد فلا يُكفر، على هذا الجود والإحسان؟! الأمر يحتاج إلى تفكير، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ أي يتفكرون في بدائع صنع الله، ويستدلون على وحدانيته وقدرته، فيؤمنون به ويعبدونه ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي قل يا أيها الرسول لعبادي المؤمنين، يعفوا ويصفحوا عن الكفار، الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعتقدون بلقاء الله

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

وجزائه، ويتركوا جزاءهم إلى الله، ليعاقبهم في الآخرة، على ما اقترفوه في الدنيا من آثام وإجرام، فكلُّ إنسان يُجازىٰ بعمله، فمن فعل خيراً نفع نفسه، ومن فعل شراً أضرَّ بنفسه، وعند الله تجتمع الخصوم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أنزلنا على بني إسرائيل (التوراة)، وأعطيناهم الحكمة وهي فصل الخصومات بين الناس، وجعلنا فيهم الأنبياء الكثيرين، ورزقناهم من أنواع النعم، من المآكل، والمشارب، والأقوات، والثمار، وأنواع اللذائذ الكثيرة، وفضلناهم على عالمي زمانهم، ولكنهم لم يشكروا الله على نعمه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾ أي وأعطيناهم دلائل ظاهرة، ومعجزات قاهرة، تدل على صدق رسالة محمد، وما بشَّرتَ به التوراة من بعثة خاتم النبيين، فما اختلفوا في أمر نبينا ﷺ، إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين، على صدق رسالته ﷺ، حسداً وعناداً، ورغبةً في أن تبقى الرسالة، محصورة في بني إسرائيل، لا تنتقل إلى العرب، فتكذيبهم لرسالته ﷺ عن عداوةٍ وحسد ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي هو جلَّ وعلا الذي يفصل بين العباد يوم القيامة، فيما اختلفوا وتنازعوا فيه، من أمر الإيمان والدين، وفي الآية تحذير لكفار مكة، أن يسلكوا مسلك من سبقهم، من الأمم العاتية الطاغية، فيحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك الكفرة المجرمين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي جعلناك يا محمد على شريعةٍ واضحة ساطعة، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فاستمسك بما أوحاه الله إليك، في هذا الكتاب المنير، ولا تتبع أهواء السفهاء الجهال من قومك، الصادّين عن دين الله ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي إنهم لن يدفعوا عنك شيئاً من العذاب، إن

هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

سايرتهم على ضلالهم!! رُوي أن المشركين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يكفَّ عن تسفيه عقولهم، والطعن في آلهتهم، والانتقاص منها، وأن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فنزلت السورة ﴿قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون﴾ وإلى هذه تشير الآية الكريمة هنا.. ثم بيَّن تعالى لرسوله ﷺ، أن أهل الضلال والهوى، ينصر بعضهم بعضاً، وأنه لا يواليهم ولا يساندهم إلاَّ ظالم مثلهم ﴿وإن الظالمين بعضهم أولياءُ بعضٍ والله وليُّ المتقين﴾ هو ناصرهم ومتولي أمورهم، وهو عونهم وسندهم، وهم في حفظه ورعايته!! والغرضُ تحذيرُ المؤمنين من موالاة أعداء الله، ورسولُ الله ﷺ معصوم بحفظ الله له، ولكنه يُخاطب لأنه الرئيس والقائد لأتباعه المؤمنين ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي هذا القرآن نورٌ وضياء، وهدى وشفاء، بمنزلة البصائر، يبصر به الناسُ الحقَّ من الباطل، والهدى من الضلال، وهو هداية ورحمة لمن آمن به، وتمسَّك بتعاليمه الحكيمة، وأيقن أنه كلام ربِّ العالمين ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي هل يظن الكفَّارُ الفجار، الذين ارتكبوا أنواع الجرائم والآثام، أن نجعلهم في الحكم والاعتبار، كالمؤمنين الأبرار؟ ونعاملهم معاملتهم في الجزاء والتكريم؟ ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي هل يتساوى الأشرار مع الأبرار، في الحياة وبعد الممات؟ كلاَّ، لا يستوون في حالٍ من الأحوال، فإن المؤمنين عاشوا على الطهر والطاعة، والكفار عاشوا على الفجور والعصيان، وشتَّان شتَّان بين الفريقين، وساء ما ظنُّوا واعتقدوا بالله، أن يساوي بين الفجار والأبرار!! ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي وخلق الله السموات والأرض بالعدل، ومن أجل تحقيق العدل لا بدَّ من مجيء الآخرة، للانتصار للمظلوم من الظالم، ولكي يُجازي كل إنسان بعمله، وبما فعله من خير أو شر، ولا يظلم ربك أحداً!! وضَّح سبحانه أن الحكمة من خلق العالم، هو الجزاء العادل، ولو لم تكن هناك آخرة ـ كما زعم الكفارُ ـ لاستوى المطيع والعاصي، والبر والفاجر، وهذا ما لا يتفق

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾

مع حكمة الله وعدالته ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي أخبرني عن حال الشقي الفاجر، الذي ترك عبادة الواحد الأحد، وعَبَد الهوىٰ؟ ﴿وأضلَّه الله على علم﴾ أي عارفاً بالحق والباطل، **وقال ابن عباس**: «ذلك هو الكافرُ اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلاَّ ركبه» فإذا استحسن شيئاً في نفسه فعله، وإذا رآه قبيحاً تركه، لا يهوى شيئاً إلاَّ عَبَده من دون الله ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ؟ أي وطبع على سمعه وقلبه، بحيث لا يتأثر بموعظة ولا نصيحة، ولا يتفكر في الآيات، وجعل على بصره غطاءً، حتى لا يُبصر الهدى والرشاد، وقد سُدَّت عليه جميعُ المنافذ، التي يدخل منها النور «السمعُ، والعقلُ، والبصرُ» فمن يهديه بعد أن أضلَّه الله؟ لا أحد يقدر على ذلك، أفلا تعتبرون وتتعظون!! ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ أي قال المشركون المنكرون للبعث والنشور: لا حياة بعد هذه الحياة الدنيا، يموت بعضُنا، ويحيا بعضنا، ولا آخرة، ولا حساب، ولا جزاء، وما يفنينا إلا تعاقبُ الدهور، والأعوام، والأيام، وليس بعد ذلك شيء مما يقوله الرسل، وجاءت به الأديان!! وهذه (عقيدة الملاحدة)، الذين ينسبون الخلق إلى (الطبيعة)، فيقولون: الطبيعة أوجدتنا، والطبيعةُ تطوينا، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي وليس لهم في هذه المزاعم الباطلة، مستند من شرعٍ، أو عقل، وما هي إلاَّ ظنون منهم وأوهام، ظنُّوها حقائق، واعتمدوا عليها في إنكار يوم الحساب ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي وإذا قُرئت عليهم آياتُ الذكر الحكيم، واضحات الدلالة على مجيء الآخرة، ما كان متمسكهم في إنكار البعث، إلا أن يقولوا: أحيوا لنا آباءنا، وابعثوهم من قبورهم، إن كنتم صادقين أننا سنحيا بعد الموت!! سمَّى تعالى هذا القول الباطل منهم

قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾

«حجة» على وجه (التهكم والسخرية)، كماقال الشاعر: «تحية بينهم ضربٌ وجيعُ» وما عرف الحمقى أن البعث لا يكون هنا في الدنيا، إنما هو بعد الموت، وانتهاء حياة البشر ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي قل لهم: الله الذي أحياكم حين كنتم في أصلاب آبائكم، هو الذي يميتكم عند انتهاء آجالكم، ثم بعد الموت يبعثكم للحساب والجزاء، فمن قَدَر على البدء، قَدَر على الإعادة، ولكن الكثيرين يجهلون قدرة الله عزَّ وجل ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي ولله جلَّ وعلا ملك جميع ما في الكون، هو الخالقُ وهو المالك لها، ويوم القيامة يخسر الكافرون، المكذبون بيوم الحساب، ويظهر خسرانهم في ذلك اليوم الرهيب ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي وترى كلَّ أمة من الأمم، جالسة على الركب، من شدة الهول والفزع، وهي هيئة (المذنب الخائف)، وذلك حين يُؤتى بجهنم، فإنها تزفر زفرةً لا يبقى أحد، إلاَّ جثا على ركبتيه، يقول: نفسي، نفسي، وكلُّ أمة تُدعى إلى كتاب أعمالها، ويُقال لهم: اليوم تنالون جزاء أعمالكم، التي فعلتموها في الدنيا ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي هذا كتاب أعمالكم يشهد عليكم بالحق، من غير زيادة ولا نقصان، فكل ما فعلتموه مثبتٌ هنا ومحفوظ، لا شيء يُنسى، ولا شيء يضيع، كما قال سبحانه ﴿ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾؟ أي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا سجَّلها علينا ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي فأما المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فإن الله

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾

يدخلهم في الجنة، وتلك هي السعادة الكبرى، التي لا سعادة بعدها، وعبَّر عن الجنة بقوله ﴿في رحمته﴾ لأن الجنة مكان تنزل الرحمة ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ أي وأمَّا الكافرون الجاحدون فيقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ألم تكن الرسلُ تتلو عليكم آيات الله؟ فتكبرتم عن الإيمان بها، وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قوماً مغرقين في الإجرام!! ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ المراد بالساعة القيامة، أي وإذا قال لكم المؤمنون: إن ما أخبركم الله به، ووعدكم بمجيئه، حق كائن لا بدَّ أن يأتي، والقيامة قادمة لا محالة، قلتم لغاية عتوّكم وضلالكم: أيُّ شيء القيامة؟ نحن لا نعرفها ولا نؤمن بها، نسمع بها سماعاً، ولا نظن أنهاستحدث، ولسنا مصدِّقين بها يقيناً ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي ظهرت لهم يوم القيامة، قبائح أعمالهم، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه، ويستهزئون به في الدنيا، ويقولون: متى يأتينا العذاب؟ سخرية واستهزاء ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ويقال لهم: اليوم نترككم في العذاب، ونعاملكم معاملة الناسي، كما تركتم العمل لهذا اليوم الرهيب، ولم تبالوا به، ومصيركم ومسكنكم اليوم في نار جهنم، لا مأوى لكم غيرها، وليس لكم من ينصركم ويخلِّصكم من هذا العذاب!! والمرادُ بالنسيان في الآية: التركُ، **قال مجاهد**: ﴿فاليوم ننساكم﴾ أي نترككم كما تركتم العمل للآخرة، لأن الله تعالى لا يضلُّ ولا ينسى، روى مسلم في صحيحه (يقول الله للعبد يوم القيامة: ألم أكرمك؟ وأزوِّجْك وأسخِّرْ لك الخيل والإبل؟ فيقول العبدُ: بلىٰ يا ربِّ!! فيقول: أفظننتَ أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى له: فاليومَ أنساك كما نسيتني) رواه مسلم، أي أهملك وأتركك في العذاب كما

ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

تركت عبادتي وطاعتي ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ أي نجازيكم بهذا الجزاء، بسبب أنكم سخرتم من كلام الله ودينه، واستهزأتم بما جاءكم به الرسول، وخدعتكم الدنيا بزخارفها وأباطيلها، حتى نسيتم الآخرة ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي فاليوم لا يُخرجون من نار الجحيم، ولا يُطلب منهم أن يرضوا ربهم، بالتوبة والطاعة، ولا أن يعتذروا إليه، لفوات الأوان ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فللَّه وحده خاصة الحمدُ والثناء، لأنه الخالق والمالك لكل ما في السموات والأرض ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وله سبحانه العظمة والكمال، والمجد في السموات والأرض سبحانه وتعالى ربُّ العزة والجلال!!.

انتهى تفسير سورة الجاثية

● ● ●

حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا
بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ (٣) قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا
تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي
بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٤)

تفسير سورة الأحقاف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ الحروف المقطعة للإشارة إلى إعجاز القرآن، ثم بين تعالى أن هذا الكتاب المعجز، منزلٌ من عند الله، ﴿العزيز﴾ أي الغالب القاهر لكل إنسان ومخلوق، ﴿الحكيم﴾ الذي لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة وتدبير، وصف تعالى نفسه بالعزة والكبرياء، والحكمة في الأقوال والأفعال ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ أي ما خلقنا هذا الكون على وجه العبث والباطل، وإنما خلقناه بالحقِّ الواضح، لندلَّ على وحدانيتنا، وكمال قدرتنا، خلقناه إلى زمنٍ معيَّن هو يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ أي والجاحدون لوحدانية الله، معرضون عن النظر في هذا الكون، لا يفكِّرون كيف خُلقوا؟ ولماذا خُلقوا؟ يعيشون كالبهائم السارحة، لا تدري ما يُصنع بها؟ مع أن كل صفحة من صفحات هذا الوجود، تنطق بعظمة الله ووحدانيته، وكل ذرة تشهد بإبداعه وتدبيره، ويا ويل الإنسان الذي يغمضُ عينيه، حتى لا يرى دلائل قدرة الله ووحدانيته، فيما حوله من المخلوقات العجيبة!! ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ﴾ أي قل يا أيها الرسول، لهؤلاء المشركين الوثنيين، عَبَدةِ الأوثان والأحجار: أخبروني عن هذه الأصنام، التي عبدتموها من دون الله، وزعمتم أنها آلهة؟ أرشدوني أيَّ جزءٍ من أجزاء الأرض خلقوه؟ وماذا خلقوا من المخلوقات؟ من إنسان، أو حيوان، أو فَلَك، أو نبات!؟ وهل لهم شركة مع الله، في خلق شيء مما في السموات من بدائع المخلوقات؟ ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي هاتوا لي

رفع المسهم

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ

كتاباً من الكتب المنزلة من عند الله، قبل القرآن، تأمركم بعبادة هذه الأوثان، وأن الله شرع لكم عبادتها؟ أو ائتوني بـ ﴿أَثَارَةٍ﴾ أي ببقية من علم من علوم الأولين، تشهد باستحقاقها للعبادة، إن كنتم صادقين في دعواكم أنها شركاء مع الله!! **والغرضُ** توبيخُهم على هذا البهتان، فإن كل كتب الله المنزلة، ناطقة بالتوحيد، وإبطال الشرك، فليس لهم مستند من عقلٍ أو نقل.. ثم أخبر تعالى عن ضلالهم في عبادة غير الله فقال ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي ليس هناك أضلُّ ولا أجهل، ممن يعبد أصناماً من الحجارة، لا تسمع دعاء الداعين، ولا تعلم حاجات المحتاجين، لأنها جمادات لا تسمع ولا تعقل، وهذه الأصنام غافلة عمن يتضرَّع إليها ويدعوها، وفيه تهكُّمٌ بها وبعابديها ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي وإذا جُمع الناس للحساب يوم البعث، كانت هذه الآلهة أعداءً لعابديها، يضرونهم ولا ينفعونهم، وتتبرأ ممن عَبَدها من دون الله، وذلك أن الله بقدرته يحيي الأصنام، فتتبرأ من عابديها ويقولون: ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيَّانا يعبدون﴾ وذلك زيادة في الحسرة على الكفار، الذين أفنوا أعمارهم في عبادة الأحجار، والآية تشمل كل من عَبَد غيرَ الله، من حجر، أو شجر، أو بشر، فالجميع يصبحون يوم القيامة أعداء، كما قال سبحانه ﴿سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن عناد المشركين ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وإذا قُرئت على المشركين، آيات القرآن الكريم، ساطعات بيِّنات الإعجاز، قال أعداء الله الكفرة: ما هذا القرآن إلاَّ سحرٌ، واضحٌ أمره أنه سحرٌ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾ أي هل يقول المشركون: اختلق محمد هذا القرآن، وافتراه من تلقاء نفسه، ثم نَسَبه إلى الله؟ قل لهم: لو

رفع المسهم

هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

أنني اختلقتُ هذا القرآن ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ فإنكم لا تقدرون أن تدفعوا عني عذاب الله، ولا تنقذوني من عقابه وبطشه، فهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه، فكيف أكذب على الله من أجلكم، وأتعرَّض لعذابه الشديد؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي هو سبحانه العالم بما تخوضون في القرآن، وتطعنون فيه، فتقولون عنه: إنه سحر، إنه شعر، إنه أساطير الأولين، وغير ذلك من وجوه الطعن، وكفى أن يكون الله العليمُ، شاهداً بيني وبينكم، يشهد لي بالصدق والتبليغ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب، وهو سبحانه الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده، وفيه وعدٌ لهم بالغفران والرحمة، إن رجعوا عن الكفر، وبيان لحلمه تعالى عليهم، إذ لم يعاجلهم بالعقوبة، مع سخريتهم واستهزائهم!! ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قل لهم يا أيها الرسول: لستُ أول رسولٍ أُرسل للناس، بل جاء قبلي رسلٌ كثيرون، وما أنا بالرسول المبتدَع، الذي لا نظير له، حتى تستنكروا دعوتي ورسالتي!؟ ولستُ أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الدنيا؟ هل أُنصر عليكم أم أُقتل؟ أم يحدث لي ما حدث للرسل، من الإخراج من الوطن؟ كما لا أدري أيُخسف بكم، أم تُرمون بالحجارة؟ فأنا لا أتبع إلا ما أوحاه الله إليَّ، ولا آتي بشيء من تلقاء نفسي، وما أنا إلا رسولٌ صادق، أنذركم عذاب الله وانتقامه!! ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين، الكافرين بالقرآن: أخبروني إن كان هذا القرآن كلامَ الله حقاً، ولم يكن سحراً، ولا مفترى كما تزعمون!! وكذَّبتم به وجحدتموه، وقد شهد رجلٌ من كبار علماء بني إسرائيل، فآمن به واستكبرتم أنتم عن الإيمان؟ كيف تظنون أن الله

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

سيفعل بكم؟ ألستم تكونون أشقى الناس؟ وأظلم الناس؟ والله لا يوفق للإيمان كل ظالم فاجر!! **أمَّا الشاهدُ الذي أشارت إليه الآية**، فهو (عبدُ الله بن سَلاَم) من أكبر أحبار اليهود، وقد أسلم رضي الله عنه، حين هاجر النبي إلى المدينة المنورة، فجاء إليه وسأله عن ثلاثة أسئلة لا يعلمهن إلاَّ نبيٌّ ـ كما في رواية البخاري وأحمد ـ فلما أجابه عنها أسلمَ، وروى الشيخان عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: (ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لإنسان حيٍّ يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزلت الآية ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن﴾ الآية ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ هذه مقالة رؤساء قريش، أي قال الطغاة المستكبرون من رؤساء قريش: لو كان في هذا الدين خيرٌ، ما سبقنا إلى الدخول فيه، أمثالُ هؤلاء الفقراء الصعاليك، مثل (عمار، وصهيب، وخباب، وبلال) وأمثالهم ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي ولمَّا لم يهتدوا بالقرآن، مع وضوح إعجازه، قالوا عنه: هذا كذبٌ قديم، مأثورٌ عن الناس الأقدمين، أتى به محمد ونَسَبه إلى الله!؟ وهذا هو الكِبْرُ، الذي قال عنه رسول الله ﷺ: (الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْط الناس) رواه مسلم أي عدم قبول الحق، واحتقار الناس ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي ومن قبل القرآن، الذي أنزله الله عليك يا محمد، أنزلنا التوراة على موسى، قُدوةً يؤتمُّ بها في شرائع الله، ورحمة لمن آمن به واستضاء بضيائه ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي وهذا القرآن كتابٌ عظيم الشأن، مشتمل على أبدع الأحكام، مصدِّق للكتب السماوية قبله، أنزله الله بلغة العرب، إنذاراً للظالمين، وبشارة للمحسنين المتقين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي هؤلاء المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، والاستقامة على دين الله،

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

وثَبَتُوا على ذلك حتى الممات، هؤلاء السعداء لا يلحقهم مكروه في الآخرة يخافون منه، ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا، وهم أهل الجنة على الدوام، لا يُخْرَجون منها أبداً ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ﴾ أي أمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه، والحنوِّ عليهما، أمراً مؤكداً وثيقاً، أن يرعاهما ويحسن معاملتهما، بسبب ما تحمَّلاه من مشقات ومصاعب، في تربية الولد.. ثم ذكر تعالى ما تلقاه الأم على وجه الخصوص فقال ﴿حملته أمه كرهاً﴾ أي حملته أمه بكرهٍ ومشقة، مع شدة الآلام التي تلقاها، من الوِحام، وتغيُّر المزاج، وولَدَتْه بمشقةٍ وعسر ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ أي ومدة حمله ورضاعه سنتان ونصف السنة، فهي لا تزال تعاني وتقاسي الشدائد والآلام ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي حتى إذا عاش هذا الطفل، واستكمل السنَّ الذي فيه قُوَّته، وكمالُ عقله ورشده، وهو سنُّ الأربعين من العمر ـ وهو السنُّ الذي يُنبَّأ به الأنبياء ـ قال هذا الولد الصالح: يا رب ألهمني شكر نعمتك، التي أنعمت بها عليَّ وعلى والديَّ، وَوَفِّقني للعمل الصالح الذي يرضيك ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي اجعل ذريتي وأبنائي صالحين، مطيعين لك يا رب، معتصمين بدينك الحق، إني تائب لك من جميع الذنوب والآثام، وأنا من المسلمين المستمسكين بالإسلام ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي هؤلاء الأبناء البررة، هم الذين نصفح عن سيئاتهم، ونتقبل حسناتهم، بالوعد الصادق، الذي وعدناهم به على ألسنة رسلنا، ونكرمهم بالعفو والغفران، ودخول الجنان، مع عبادنا الصالحين.. **وهذه الآية نموذج** للولد الصالح

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

البار، الذي استضاء قلبه بنور الإيمان، واستجاب لدعوة الرحمٰن، **أما النموذج الثاني فهو** للولد الشقي، العاقِّ لوالديه، الكافر بنعمة الله، والجاحد لوحدانيته ووجوده، فيقول عنه القرآن الكريم ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ أي وأما الولد الفاجر، الذي قال لوالديه حينما دَعَواه إلى الإيمان بالله، والتصديق بالآخرة: قُبحاً لكما على هذه الدعوة، أتعدانني أن أبعث بعد الموت، وقد مضت قرون وخلائق كثيرون قبلي، ماتوا ولم يُبعث منهم أحد!! ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي والوالدان يسمعان الكفر، ويفزعان مما يقوله ولدهما العاقُّ، ويستغيثان بالله، أن ينقذه من الشقاء والكفر، ويقولان له: ويلك آمنْ بالله، وإلاَّ هلكتَ، فوعدُ الله حقٌّ لا شك فيه، وولدهما الشقي يقول: ما هذا الذي تخبراني عنه من أمر البعث، إلاَّ خرافات وأباطيل السابقين، وما هي إلاَّ أوهام باطلة، ولا بعث ولا نشور!! ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي أولئك الأشقياء، هم الذين وجب لهم عذاب الله، في جملة أمم من أصحاب النار، مضت قبلهم من الجن والإنس، من الكفرة الفجار، ضيَّعوا فطرتهم الأصلية، باتباع الشيطان، فخسروا حياتهم وسعادتهم الأخروية.. وهذه الآيات عامة في كل ولدٍ بارٍ لوالديه، وفي كل ولدٍ شقيٍ عاقٍ لوالديه، ضربهما الله كنموذج للأبرار، والأشرار، ثم قال تعالى ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي ولكل فريق مراتب ومنازل بحسب أعمالهم، فللمتقين جنات النعيم، وللمجرمين دركات الجحيم، ومن زعم أن الآية ﴿والذي قال لوالديه أفٍ لكما﴾ نزلت في (عبد الرحمٰن بن أبي بكر) فقد أخطأ خطأً فاحشاً، لأن عبد الرحمٰن قد أسلم وحسن إسلامه، حتى كان من سادات الصحابة، ويدلُّ عليه ما روي (أن معاوية لما

رفع المسيهم

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ

أراد البيعة لابنه «يزيد» أرسل مروان، فجعل يقول لناس: إن أمير المؤمنين رأى في يزيد رأياً حسناً، رأى أن يستخلفه عليكم، وهي سنة «أبي بكر، وعمر» فقال عبد الرحمٰن: بل سُنةُ «هرقلَ وقيصر» فقال مروان: هذا الذي قال لوالديه ﴿أفٍ لكما﴾ فبلغ ذلك عائشة، فقالت: كَذَب مروان، واللهِ ما هو به، ولو شئتُ، أن أسمّي الذي نزلت فيه لسمَّيته» رواه النسائي، وروى البخاري بعضه بلفظ آخر، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أي اذكر لهؤلاء الغافلين، يوم تبرز جهنم لأربابها، ويُقرَّب الأشقياء منها، وتقول لهم الملائكة تقريعاً وتوبيخاً: لقد اشتغلتم بلذائذ الدنيا، من المآكل والمشارب، والملابس والمراكب، ونلتم حظوظكم في الدنيا، ولم تعملوا للآ-رة ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم ـ يوم الجزاء ـ تنالون عذاب الذل والهوان، بسبب استكباركم عن الإيمان، وفسقكم وخروجكم عن طاعة الرحمٰن.. والآية وإن نزلت في الكفار، بدليل قوله تعالى ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ لكنَّها تحذير وموعظة للمؤمنين، أن يرفلوا في ثياب الذين شغلتهم لذائذ الحياة عن طاعة الله، فأصبحوا متنعمين في الدنيا، ولذلك قال عمر لجابر بن عبد الله، وقد رآه اشترى لحماً بدرهم، فقال له: أو كلَّما اشتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنه!! أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية، ممن قال الله فيهم ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾؟ واللهِ لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعاماً، وأحسنكم لباساً، ولكنِّي استبقي طيباتي لحياتي الآخرة!! ثم ذكر تعالى نموذجاً للأمم الطاغية الباغية، التي دمَّرها الله، موعظة لكفار قريش، فقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي واذكر يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك، قصة نبيِّ الله «هود» مع قومه «عاد» ليعتبروا ويتعظوا، حين حذَّر قومه من عذاب الله، وهم مقيمون بالأحقاف ـ وهي جبال من الرمل في بلاد اليمن ـ وقد مضت الرسل بالإنذار قبله، وبعده ـ

إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ
أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ
أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ
نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾

حذَّرهم هود وقال لهم: لا تعبدوا إلا الله، الذي خلقكم ورزقكم، وإليه مرجعكم ومآلكم ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي إني أخاف إن عبدتم غيره، عذاب يومٍ هائل هو (يوم القيامة)!! وقد جاء جواب هؤلاء السفهاء، على هذا التذكير والإنذار؟ سفيهاً وبعيداً عن الأدب ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ فأتنا بالعذاب الذي وعدتنا به، إن كنت صادقاً في دعواك!! وهو استفهام يراد به التسفيه لرأيه، والانتقاص من قدره، أمَّا (هود) فيتلقى هذا كلَّه في أدب الأنبياء، فهو عبد لله مأمور ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ أي ليس عندي علم بوقت مجيء العذاب، إنما علمه عند الله، وأنا أبلغكم رسالة ربي، ولكني أجدكم قوماً جهلة، ولذلك تستعجلون العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ أجمل القرآن هنا ما كان بين (هود) وقومه، من النقاش والجدال، ليصل إلى النهاية المقصودة، من وراء هذا التحدِّي، والاستعجال بطلب العذاب، أي فلمَّا رأوا السحاب معترضاً في أفق السماء، متجهاً نحو أوديتهم، استبشروا به، وقالوا: هذا سحاب مبارك، يأتينا بالمطر المدرار ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي قال لهم هود: ليس الأمر كما زعمتم أنه سحاب ممطر، بل هو ما طلبتموه، واستعجلتم به من العذاب، ريح عاصفة مدمرة، فيها عذاب فظيع مؤلم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي تخرِّبُ الريحُ وتُهلك كلَّ شيء أتت عليه، من (رجال، وزروع، وثمار، وبناء، وأبقار)، بأمر الله وتدبيره، فأصبحوا وقد هلكوا، ولم يبق منهم سوى أطلال الديار، كذلك نعاقب ونجازي كل كافرٍ مجرم، مكذب لرسل الله!! روى

رفع المسهم

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾

البخاري عن عائشة أنها قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً، عُرف ذلك في وجهه!! قلتْ يا رسول الله: إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية!! فقال يا عائشة: ما يؤمِّنني أن يكون فيه عذاب؟ عُذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا ﴿هذا عارض ممطرنا﴾!! رواه البخاري ومسلم، قال المفسرون: إن عاداً أصابهم حرٌّ شديد، وانقطع عنهم المطر، حتى قُحطوا، وكادوا يهلكون من شدة الحر، ورأوا سحابة في السماء، ففرحوا بها فرحاً شديداً، وخرجوا يستقبلونها في الأودية، يحسبون فيها الظلَّ والماء، فلما صاروا تحتها عصفت بهم عصفاً، ودمرتهم تدميراً، فلم تُبق منهم إلاَّ الآثار، وكانت تقتلع الواحد منهم، فترفعه في السماء ثم ترمي به إلى الأرض، فإذا بهم جثث هامدة، كأنهم أعجاز نخل خاوية، واستمرت الريح عليهم ثمانية أيام، كما قال سبحانه ﴿سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية﴾ حسوماً: أي متتابعة، لقد أهلكهم الله بأبسط جنده بالريح العقيم!! قال تعالى محذِّراً ومنذراً كفار مكة ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى «ما» أي ولقد مكنَّا عاداً، في الشيء الذي لم نمكِّنكم فيه يا أهل مكة، من القوة، والبسطة، وطول الأعمار، وقوة الأجسام، ومنحناهم الحواسَّ من السمع، والبصر، والعقل، ليشكروا ربهم على هذه النعم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي فما نفعتهم تلك الحواس أيَّ نفع، ولا دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله، بل صرفوا جميع هذه النعم، في طلب الدنيا ولذاتها، ولم يستعملوها فيما ينفعهم، وجحدوا وكذبوا بآيات الله، التنزيلية والتكوينية ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ونزل بهم العذاب، الذي كانوا يسخرون منه، ويستهزئون من مجيئه ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الخطاب لكفار مكة، أي ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم يا أهل مكة، كبلاد ثمود باليمن، وقرى قوم لوط بالأردن،

رفع المسهم

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

وكررنا لهم الحجج والدلالات، والمواعظ والبينات، لعلهم يرجعون عن الكفر والمعاصي، ولكنهم لم يتعظوا بكل ذلك ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي فهلاً نصرتهم آلهتم المزعومة، التي عبدوها من دون ١١؟ وزعموا أنها تقربهم من الله في قولهم ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أيَّ قربة؟ بل غابوا عن نصرتهم، وتركوهم وحدهم، وهم أحوج ما يكونون إليهم، لأن الصديق وقت الضيق، وهذا نتيجة الافتراء والكذب على الله!! وفي الآية ضرب من التهكم بهم، وبآلهتهم المزعومة، كأنَّ عدم نصرة الآلهة لهم، كان لغيبتهم عنهم، لا لأنها حجارة صماء بكماء، لا تسمع ولا تجيب!! وفي مقابلة هؤلاء المكذبين لسيد الخلق محمد ﷺ، من طواغيت مكة، الذين كذبوا القرآن، واستهزءوا بالرسول عليه الصلاة والسلام، تعرض السورة لنفرٍ من الجن، استمعوا إلى النبي ﷺ وهو يتلو القرآن، فتأثروا به وآمنوا، وتَداعَوْا إلى استماع آياته البينات ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي واذكر يا محمد حين وجَّهنا إليك نفراً من الجن، وأقبلنا بهم نحوك، وأنت تقرأ كتاب ربك في تهجدك وصلاتك، فلما سمعوا القرآن، قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنسمع ما يقرأ، فلما فرغتَ من تلاوة القرآن، رجعوا إلى قومهم مؤمنين ناصحين، يحذّرونهم عذابَ الله إن لم يؤمنوا!! لقد خشع الجنُّ عند سماع القرآن، ورقَّت قلوبهم فآمنوا وأذعنوا، ورجعوا يدعون إخوانهم من الجن إلى الإيمان به، وتصديق رسوله!! والمشركون يقولون ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ فما أبعد الفارق بين الجن، وكفار مكة، الغلاظ القلوب والأكباد!! وفي الآية توبيخ للمشركين حيث آمنت الجن بالقرآن، وهم يكذبون به ويستهزئون!؟ ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي قالت الجن لإخوانهم: لقد سمعنا كتاباً عجيباً غريباً، رائعاً مجيداً،

يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِيَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾

أُنزل على رسول من بعد موسى، مصدِّقاً لما سبقه من كتب الله السماوية، يرشد إلى الحق، وإلى الدين القويم ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أجيبوا خاتم الأنبياء، الذي أنزل عليه هذا القرآن، وصدِّقوا برسالته، يرحمكم ربكم، ويكفِّر عنكم ذنوبكم، ويخلِّصكم وينجِّيكم من عذاب شديد مؤلم ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا ترهيبٌ بعد الترغيب، أي ومن لم يؤمن بهذا الرسول، وبما جاء به من عند الله من الذكر الحكيم، فإنه لا يعجز الله في الأرض، بالهرب من عذابه، وليس له من دون الله، من ينصره، ويمنع عنه عذاب الله، وهؤلاء الذين لا يستجيبون للدعوة، في خسران واضح، بحيث لا يخفى على أحد!! وإلى هنا ينتهي حديث الجن، ثم يأتي التوبيخ لكفار قريش، المعرضين عن الأدلة والبراهين، الدالة على وحدانية رب العالمين، والمنكرين للبعث والنشور، فيقول سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِيَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي أولم يتفكر هؤلاء المشركون ويعلموا، أن الله الذي أبدع خلق السموات والأرض، وخلقها بهذه السعة والعظمة، واقفة بقدرة الله من غير أعمدة؟ ولم يعجز عن ذلك ولم يضعف، قادرٌ على إحياء الموتى بعد وفاتهم؟ بلى إنه قادر على كل شيء أراده ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي واذكر لهم ذلك اليوم الرهيب، يوم يُعرض المجرمون المكذبون للبعث، على نار جهنم، ويوقفون أمامها ثم يُقذفون فيها، ويُقال لهم: أليس هذا العذاب الذي تذوقونه حقٌّ؟ أم أنه سحر كما كنتم في الدنيا تقولون؟ فذوقوه بسبب كفركم وإجرامكم!؟ وقد أكَّدوا جوابهم، بالقسم فقالوا ﴿بلى وربنا﴾ كأنهم

فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

يطمعون في الخلاص، وأنى لهم ذلك؟ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين، واستهزائهم بك، كما صبر الرسل الكرام من قبلك، وهم مشاهير الرسل، أصحاب الشرائع السماوية الكبرى، مثل (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى) عليهم السلام، ولا تستعجل في عذاب المشركين، فهو نازل بهم لا محالة، كأنهم حين يعاينون العذاب، لم يمكثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة من النهار، لما يشاهدون من الشدائد والأهوال ﴿بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي هذا بلاغ من الله وإنذار، ولا يهلك إلا الفسقة العصاة الفجرة، الخارجون عن طاعة الله تعالى!!.

انتهى تفسير سورة الأحقاف

● ● ●

رفع المسّاهم

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

تفسير سورة محمد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي الكفار الذين امتنعوا عن الدخول في الإسلام، وصدُّوا غيرهم عن الدخول فيه، أبطل الله أعمالهم وضيَّعها، فلم يعد لها نفع ولا ثواب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وآمنوا بمحمد ﷺ وبما أُنزل عليه من القرآن الحكيم، وهو الحق الثابت المؤكد، محا الله عنهم سيئاتهم، وأصلح شأنهم وحالهم.. مقابلةٌ لطيفةٌ بين أهل الإيمان، وأهل الكفر والطغيان، فأولئك الكفار الفجار، أحبط الله أعمالهم، وهؤلاء المؤمنون الأبرار، غفر لهم سيئاتهم، وأصلح لهم شئونهم وأحوالهم، وتخصيصُ الإيمان بمحمد ﷺ، مع أنه داخل في الإيمان الكلي، هو لتعظيم شأن الرسول ﷺ، وتفخيم أمره، وللإشارة إلى ضلال أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حيث كفروا بمحمد، فإنهم وإن آمنوا برسولهم، لكنهم كفار لأن من كذَّب رسولاً فقد كذَّب سائر المرسلين، ومصيره نار الجحيم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي ذلك الضياعُ لأعمال الكفار - التي يَعُدُّونها حسنة - بسبب أنهم سلكوا طريق الباطل والضلال، وأن المؤمنين سلكوا طريق الهدى والرشاد، فهداهم الله إلى طريق النجاة والسعادة، ومثل ذلك البيان الواضح، يبيِّن الله أحوال الفريقين، ليكون الإنسان على بصيرة من أمر دينه وآخرته،

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا
بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۛ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن
لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ
ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾

فللمؤمن السعادةُ والنجاح، وللكافر الشقاوةُ والخسران ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي فإذا لقيتم أعداءكم الكفار في الحرب، فاضربوا أعناقهم ضرباً بالسيف، واقطعوا رءوسهم، درءاً لشرورهم وآثامهم، حتى إذا أكثرتم فيهم الجروح والقتل، وأضعفتم قوتهم وعزيمتهم، فخذوهم أسرى، والوَثاقُ: القيدُ والحبلُ الذي يربط به الأسير ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي فإمَّا أن تطلقوا سراحهم، بلا مقابل من المال، وهو المنُّ، أو تأخذوا منهم مالاً، كفديةٍ عن أنفسهم وهو الفداء، بعد أن تكونوا قد كسرتم شوكتهم، حتى تنقضي الحرب وتنتهي، بعزة الإسلام واندحار الشرك ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي ولو شاء الله لأهلكهم بدون أن يكلِّفكم بقتالهم، يُهلكهم بخسفٍ، أو زلزلة، أو حاصب، أو إرسال ملائكة عليهم، ولكنه سبحانه أراد أن يمتحن إيمانكم وثباتكم، ويتخذ منكم شهداء، ولذلك أمركم بالقتال، لتستوجبوا ثواب الله العظيم، ويكون لكم فضل تطهير الأرض من رجس المشركين، والذين يُستشهدون منكم، فلن يضيِّع الله أعمالهم، بل يُنمِّيها لهم ويضاعفها ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي سيرشدهم ربهم إلى طريق السعادة، ويصلح حالهم وشأنهم، ويدخلهم الجنة دار السرور والحبور، يهتدون إلى بيوتهم ومنازلهم لا يخطئونها، كأنهم سُكَّانها منذ خُلقوا، وفي الحديث الشريف (والذي نفسي بيده، إن أحدكم بمنزله في الجنة، أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا) رواه البخاري ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي إن تنصروا دين الله، ينصركم على أعدائكم، ويثبتكم في مواطن الحرب والقتال ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي وأمَّا الكافرون بربهم، فهلاكاً لهم وشقاءً، وتعاسة وخيبة، وقد أبطل الله أعمالهم، فأذهبها وأضاعها، لأنها كانت في

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا
﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ
يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ
أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

مرضاة الشيطان!! ثم خوَّفهم تعالى عاقبة الكفر، وذكَّرهم بمصارع الطغاة المتجبرين، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؟ أي أفلم يسافر هؤلاء الكفار في البلاد، ليروا ما حلَّ بمن سبقهم من الأمم الطاغية، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون الجبار، وغيرهم من الطغاة المجرمين؟ ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي أهلكهم الله، . واستأصلهم، وخرَّب ديارهم، ولهؤلاء الكافرين من قومك، أمثالُ هذه العقوبات الوخيمة، ولفظ ﴿دمَّر الله عليهم﴾ أبلغ من قوله «دمَّرهم» لأن معنى «دمَّر عليهم» أنه أهلكهم مع أموالهم، ودورهم، وأولادهم، وأطبقَ عليهم الهلاك إطباقاً، كتهدُّم دارٍ على أصحابها، فإذا ديارهم أنقاضٌ متراكمة، وإذا هم تحت هذه الأنقاض، كما يحدث في حالات الزلازل العنيفة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي تلك العقوبة الفظيعة الشنيعة، بسبب أن الله وليُّ المؤمنين، وناصرُهم، وحافظُهم، وأن الكفار لا ناصر لهم، ولا معين ولا مغيث، فالمؤمنون في حفظ الله ورعايته، والكافرون ليس لهم من يدفع عنهم عذاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي فأما المؤمنون، الذين عملوا الصالحات، فإنهم في قصور الجنة، تجري من تحتها أنهارُ الجنة بالماء السلسبيل، ولهم فيها من كل ما يشتهون، من أنواع اللذائذ، والمطاعم، والمشارب، وأما الكافرون فإنهم غافلون عن العاقبة، يعيشون في الدنيا كما تعيش البهائم، ويأكلون كما تأكل الأنعامُ والدوابُّ، لا يفكّرون في بعثٍ، ولا حساب، ولا جزاء، فهم إلى الحيوانية، أقرب منهم إلى الإنسانية، ونار جهنم مسكنهم ومصيرهم في الآخرة ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي وكثير من أهل قرية أي بلدة، هم أشدُّ قوة من أهل

رفع المسهم

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ

مكة، الذين أخرجوك منها، ببغيهم، حين تآمروا على قتلك، أهلكناهم بأنواع العقوبات المدمِّرة، فلم يكن لهم ناصر ينقذهم من عذاب الله!! والآية تسلية للرسول ﷺ، أي كذلك نفعل بالمجرمين من قومك، **قال ابن عباس**: لمَّا خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، بعد أن اختفى بالغار، التفت إلى مكة وقال (إنك لأحبُّ البلاد إلى الله، وأحبُّ البلاد إليَّ، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجتُ) فأنزل الله على نبيه هذه الآية ﴿وكأين من قرية. .﴾ الآية، أخرجه ابن أبي حاتم ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؟ أي هل من كان على بصيرة، وثبات من أمر الدين؟ مثل الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين، كمن زُيِّن له عمله القبيح فرآه حسناً؟ لا يتساويان أبداً، كما لا يتساوى الأعمى مع البصير!! ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ المثلُ هنا لا يراد به التمثيل، وإنما يُراد به الوصفُ، **والمعنى**: صفةُ الجنة العجيبة الغريبة، التي هي في الجمال والروعة تشبه المَثَل، أن فيها أنهاراً جاريات، من كل صنفٍ ونوع، ليست كأنهار الدنيا تتغيَّر وتتعكَّر، بل هي صافية، لا عَكر فيها ولا كدر، فيها أنهار الماء السلسبيل ﴿من ماء غير آسن﴾ يعني الصافي الذي لا كدر فيه، لم يتغيَّر بطول المكث، يتفجَّر من جبلٍ من المسك ﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ أي أنهار من حليب صافٍ في غاية البياض والنقاء، لم يخرج من ضروعِ المواشي والأبقار ﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ أي وأنهار من خمر لذيذ الطعم، ليست كريهة الطعم والرائحة، كخمر الدنيا التي تتقذَّذ منها النفس، ولا يشربها إلا فاسد المزاج، وإنما وصفها بقوله ﴿لذة للشاربين﴾ ليدفع عنها شرور خمر الدنيا، من ذهاب العقل، والصُّداع، **قال ابن عباس**: في الخمر أربعُ خصال كريهة: «السُّكرُ، والصُّداعُ، والقيءُ، والبولُ» وقد نزَّه الله تعالى خمر الجنة عن هذه الخصال الذميمة، فقال ﴿لا يُصدعون عنها ولا ينزفون﴾ أي لا تتصدع رءوسهم بشربها، ولا يسكرون فتذهب بعقولهم ﴿وأنهار من عسل مصفى﴾ أي وفيها أنهار من عسل في غاية الصفاء، وحسن الطعم

وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

واللون، لم يخرج من بطون النحل، وإنما من أنهار تتفجر في الجنة ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ أي ولهم في الجنة، من جميع أنواع الفواكه والثمار، ما لذَّ لهم وطاب، ولهم فوق ذلك النعيم المادي (نعيم روحي)، وهو المغفرة من الله لذنوبهم، والرحمةُ والرضوانُ، كما جاء في الحديث الصحيح (يقول الله لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أعطيكم خيراً من ذلك؟ أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) رواه البخاري ﴿كمن هو خالد في النار﴾ أي هل من هو في ذلك النعيم المقيم، كمن هو خالد في نار الجحيم؟ وسُقوا مكان شراب أهل الجنة، ماءً حاراً، شديد الغليان، فقطَّع أمعاءهم من شدة حرارته؟ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين، جماعة يستمعون إلى حديثك يا محمد، ولكنهم لغبائهم، وقلة فهمهم، لا يفقهون من كلامك شيئاً، حتى إذا خرجوا من مجلسك، قالوا لأهل العلم من أصحاب النبي عليه السلام: ماذا قال محمد (آنفاً)؟ يعني قبل قليل؟ لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي ختم على قلوبهم بكفرهم ونفاقهم، واتبعوا أهواءهم الباطلة، فلم يفلحوا ولم يهتدوا ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي وأما المؤمنون المهتدون، فقد زادهم ما سمعوه من رسول الله هدى فوق هداهم، ويقيناً فوق يقينهم، وألهمهم تعالى وشدهم حتى ثبتوا على دين الله، فسعدوا وأفلحوا، ونالوا أعلى الدرجات ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المنافقون، إلا أن تأتيهم القيامةُ فجأةً، دون سابق إنذار، وهم غافلون عنها، فقد جاءت أماراتها وعلاماتها، فمن أين لهم أن يتوبوا ويتذكَّروا عند مجيئها؟

رفع المسيهما

فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾

حيث لا ينفعهم ندمٌ ولا توبة؟ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي إذا علمت أن مدار السعادة على التوحيد، فأيقنْ بأنه لا معبود بحقٍ إلا الله رب العالمين، وأثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله تعالى، واطلب من الله المغفرة لك، وللمؤمنين والمؤمنات ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي هو سبحانه الذي يعلم أحوالكم في الدنيا، وتصرفكم فيها في الليل والنهار، ومصيركم في الآخرة، فأعدُّوا الزَّادَ ليوم المعاد.. بدأ تعالى الآية بالعلم ﴿فاعلم﴾ لينبّه على أن دعامة الإسلام الأساسية الإسلام، (العلم)، ولا بدَّ للمسلم أن يقبس من «ميراث النبوة» فإن الأنبياء لم يورِّثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورَّثوا العلم، بالعلم تحيا القلوب، كما تحيا الأرضُ بوابل المطر، وما أحسن ما قاله الشاعر:

فَفُزْ بعلمٍ تعشْ حياً به أبداً

الناسُ موتَىٰ وأهلُ العلمِ أحياءُ

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ﴾ أي ويقول المؤمنون المخلصون، شوقاً إلى الجهاد، وحرصاً على أجر المجاهد: هلاَّ أنزل الله سورة فيها الإذنُ بقتال الأعداء؟ لنفوز بالشهادة في سبيل الله؟ ﴿فإذا أُنزلت سورة محكمة﴾ أي لم تُنسخ، يفرض الله فيها الجهاد على المؤمنين ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي رأيت المنافقين الذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق، ينظرون إليك يا محمد، وأبصارهم مبهوتة هَلَعاً وجبناً، كما ينظر من أصابته غشيةُ الموت، فهو شاخصُ البصر ﴿فأولى لهم﴾ أي فويلٌ لهم من هذا الموقف المخزي، وهو وعيدٌ وتهديد ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾

طاعة لك يا محمد، وقول طيِّب جميل، خير لهم وأفضل وأحسن، فإذا جدَّ الجدُّ وفُرض القتالُ، فلو أخلصوا نيَّاتهم، وجاهدوا بصدقٍ ويقين، لكان ذلك خيراً لهم من التقاعس، والعصيان لأمر الرحمن ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي فلعلَّكم إن أعرضتم عن الإسلام، والجهاد في سبيل الله، أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من سفك الدماء، وتقطيع الأرحام، في سبيل جمع الحطام، **قال قتادة**: كيف رأيتم القوم، حين تَولَّوْا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمٰن؟! ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي أولئك الأشقياء طردهم الله من رحمته، وأصمَّهم عن سماع الحق، وأعمى أبصارهم، فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد!! صوَّرهم تعالى بهذا التصوير (كالبهيمة) التي لا تعقل، لأنهم عطَّلوا هذه الحواس، فاستحقوا هذا الوصف الذميم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ؟ أي أفلا يقرءون القرآن، قراءةَ تدبر وتبصُّر؟ فيدركون ما فيه من المواعظ والزواجر؟ فإن القرآن نور، يكشف الظلمةَ، ويزيل الغشاوة؟ أم قلوبهم مظلمة قاتمة، كأنها مكبلةٌ بالأقفال الحديدية، فلا يدخل إليها نور، ولا يشرق فيها إيمان!؟ شبَّه تعالى قلوب المنافقين بالأبواب المقفلة، فهي لا تستفيد من وعظ، ولا تلين لنصح، كأن القلوب أبواب، أُغلقت بإحكام، وجُعلت عليها الأقفال، فكيف يدخل إليها شيء من نور القرآن؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي هؤلاء الذين رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، بعد أن وضح لهم طريق الهدى، الشيطان زيَّن لهم ذلك، وغرَّهم وخدعهم، ﴿**وأملى لهم**﴾ أي مدَّ لهم في الأماني والآمال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ المراد (بالذين كرهوا ما نزَّل الله) اليهودُ لعنهم الله، أي ذلك الارتدادِ عن دين الله، بسبب أن المنافقين قالوا لليهود من (بني قريظة)، سنطيعكم في بعض

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

ما تأمروننا به، من الاستمرار على عداوة الرسول، وعونكم على محاربته، والخروج معكم إذا أخرجكم محمد من دياركم، والله تعالى يعلم خفاياهم، وما دبَّروه من مكائد ضد الإسلام ورسوله!! قاله المنافقون لليهود سراً، فكشَفَه الله وفَضَحهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي فكيف يكون حالهم، إذا جاءتهم ملائكة العذاب، لقبض أرواحهم؟ ثم ضربوهم بمقامع الحديد، على وجوههم وظهورهم؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي ذلك العذاب المهين لهم، بسبب أنهم سلكوا طريق النفاق، وكرهوا ما يرضي الرحمن، وفعلوا ما يحبه الشيطان، فأبطل الله أعمالهم وأزهقها ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ الأضغانُ جمع ضغنٍ وهو الحقدُ الشديدُ، **والمعنى**: هل يظن المنافقون، الذين في قلوبهم مرض النفاق والشك، أن الله لن يكشف أمرهم للمؤمنين؟ وأن الله لن يفضحهم ويظهر أحقادهم الشديدة على المسلمين؟ لا بدَّ أن يفضحهم ويكشف أمرهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي لو نشاء لكشفنا أمرهم، وأريناك أشخاصهم، فعرفتهم بعلاماتهم عياناً، والسِّيما: العلامةُ، ولتعرفنهم يا محمد من فحوى كلامهم وأسلوبه، من كلامهم المعسول، الذي ظاهرهُ الطاعة، وباطنُه اللؤمُ والخُبثُ، والله يعلم جميع أعمالهم، وأعمال الخلق، وفي الحديث الشريف (ما أسرَّ أحدٌ سريرةً، إلاَّ كساه الله جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي ولنختبرنكم أيها الناس بالجهاد، ونحوه من التكاليف الشاقة، حتى نُظهر للخلق من يجاهد منكم لنصرة دين الله، والصابرين على مشاق الجهاد، ونختبر أعمالكم،

رفع المسهم

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾

حتى يظهر الصادق من المنافق، وليس المراد بقوله ﴿حتى نعلم﴾ أن ينكشف له سبحانه أمرهم، لأن الله تعالى عالمٌ من الأزل، بحقائق النفوس والأعمال، وإنما المرادُ كشفُ أمرهم للخلق، حتى يعلموا البرَّ من الفاجر، والمؤمن من الكافر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي جحدوا وحدانية الله، ومنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، وعادوا الرسول وخرجوا عن طاعته، من بعدما ظهرت على يديه المعجزات الساطعة، الدالة على صدقه، لن يضرُّوا ربهم بكفرهم شيئاً من الضرر، وسيمحق أعمالهم الصالحة التي فعلوها، ويُبطل ثوابها، لأن الكفر يُحبط العمل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي أطيعوا أمر الله، وأمر رسوله، ولا تبطلوا أعمالكم بالكفر والنفاق ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي جمعوا بين الكفر، والصدِّ عن دين الإسلام، ثم ماتوا على الكفر، فلن يغفر الله لهم جريمتهم، ولن يعفو عنهم أبداً، لقوله سبحانه ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ والموتُ على الكفر ـ والعياذ بالله ـ يخلِّد الإنسان في نار جهنم ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي فلا تضعفوا يا معشر المسلمين أمام أعدائكم، ولا تدعوا إلى المهادنة والصلح مع الكفار، وأنتم الأعزة الغالبون، والله معكم بالنصر والتأييد ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ أي ولن يُنقص من ثواب أعمالكم شيئاً، ولن يُضيِّعها عليكم، يقال: وَتَره حقَّه: إذا بَخسه وأنقصه له ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي ليست هذه الحياة الدنيا، إلا فانية زائلة، لا قرار لها

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾

ولا ثبات، هي باطلٌ وغرور، كلعب الأطفال يتلهى بها الصغار، والدار الآخرةُ هي دار القرار، فلا ينبغي أن يكون حبُّ الدنيا، والحرص على ما فيها من الملذّات والشهوات، سبباً للجبن، والتخلف عن الجهاد، وإن تؤمنوا بالله حقَّ الإيمان، وتتقوه وتخافوا عقابه، يعطكم ثواب أعمالكم كاملاً غير منقوص، ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم في الجهاد، وفعل الخيرات، بل أدُّوا ما فرض الله عليكم منها، عوناً لإخوانكم الفقراء والمساكين ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي لو طلب الله سبحانه منكم إنفاق جميع أموالكم، وألحَّ عليكم بإنفاقها، لبخلتم، وظهر ما في قلوبكم من الشح، وكراهة الإنفاق، لأن الإنسان جُبل على حبِّ المال، ومن نوزع في حبيبه، ظهرت سرائر نفسه، وإذا كنتم تبخلون بالقليل، فكيف لا تبخلون بالكثير؟ فمن رحمته سبحانه أنه لم يكلفكم ما لا تطيقون، ومعنى ﴿فيحفكم﴾ أي يلحُّ عليكم، من الإحفاء وهو الإلحاحُ، ومعنى ﴿أضغانكم﴾ أي أحقاد النفس الدفينة، والضغنُ: «الحقدُ ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ أي ها أنتم الآن تدعون للإنفاق، في الجهاد ووجوه الخير، ببعض أموالكم، فمنكم من يمسك عن الإنفاق، في الجهاد ووجوه الخير، ومن يبخل عن الإنفاق، فإنما يضرُّ نفسه، لأنه يمنعها الأجر والثواب ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ أي والله سبحانه مستغن عنكم، وعن إنفاقكم، وأنتم محتاجون إليه، وإن تعرضوا عن طاعته، يستبدل من هم خير منكم، ولا يكوْنون مثلكم بل أفضل منكم، وأعبد لله وأطوعَ، وصلى الله على سيدنا محمد، خاتم النبيِّن والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى تفسير سورة محمد

● ● ●